مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ غَافِرٍ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة غافر

أ . د . خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة غافر

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾

ابتدأت سورة غافر بِمِثْلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. كما تماثلت افتتاحيتها بما بعدها، بسورة فُصِّلَت، وسورة الشورى، وسورة الزخرف، وسورة الدخان، وسورة الجاثية، وسورة الأحقاف. فقال تعالى ﴿حمٓ﴾ وهما حرفان من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين من الأحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر،

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[1] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله تعالى سورة غافر ببعض الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ حمٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أوضح الله تبارك وتعالى بعد ذلك بأن كتابه القرآن العظيم صادر ومُنَزَّلٌ منه سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ فابتدأ البيان بتقرير نزول القرآن الكريم أنه من لَدُنه سبحانه وتعالى العزيز العليم ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ فإن مصدر كتاب الله تعالى القرآن الكريم هو من الله رب العالمين، المتصف بالعزة والعلم. بما يفيد النفي التام والقاطع من أن يكون كتاب الله القرآن العظيم من عند غيره سبحانه وتعالى وهو المتصف بالعزة والعلم ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ فهذا بيان أيها الناس من ربكم عَزَّ وجل بأن مصدر القرآن الكريم ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ من غير شك ولا ريب ولا مرية في ذلك. وبالتالي فلا يستطيع أحد من الخلق ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثله، وبهذا ظهر كمال الإعجاز، وأصبح ذلك آية عظيمة على أن القرآن كتاب الله تعالى، بلا شك ولا ريب.

وقد أشار تبارك وتعالى إلى القرآن العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: أن القرآن الذي أنزله ربكم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله سبحانه وتعالى. وجاء لفظ الكتاب مفرداً ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ليفيد جنس الكتاب. بحيث إذا أفرد الكتاب فلا دلالة له إلا على القرآن الكريم. بما يدل على دقته وكمال إعجازه وكمال صوابه وحجته وبيانه وأحكامه، وأن ليس في أحكامه شيء من الظلم ولا

---

(١) المرجع السابق (١٠٩/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

الحيف ولا الشطط، بل كمال العدل، وأن قصصه وأخباره وأمثاله ومواعظه خالية من الزيف والكذب، بما يثبت بذلك أنه صِدْقٌ وحقيقة.

ومن دقائق البيان الكريم أن نفي الشك والريبة ورد بحصره في أنه من لدنه تبارك وتعالى وليس من غيره ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فهو ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ لينفي به كل شك، ويحصر إنزاله له تبارك وتعالى، مبيناً وموضحاً قوته وعزته وحكمته، فقال تعالى إن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد محاربة كتاب الله تعالى، القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. والصفة الثانية: ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴾ أي: الموصوف بكمال العلم، الذي لا يغيب عنه شيء أبداً سبحانه وتعالى، حتى ما يكون في الضمائر، والسرائر، والنوايا. فلا غيب على الله تعالى أبداً. كما يفيد ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴾ التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فإن أمره مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيده في نحره، ووبالاً عليه.

وقد أكد سبحانه وتعالى بأسلوب المبالغة أنه هو العزيز العليم ﴿ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فهو عزّ وجل العزيز العليم لا غيره، فقد حصر سبحانه وتعالى تنزيل الكتاب منه وحده لا شريك له، كما أن له كمال العزة والعلم. فقد أفادت بُنية كلمتي ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في عزته وعلمه. فله العزة المطلقة، وكذلك فهو ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴾ فله العلم المطلق. فإن بنية ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴾ تفيد كمال العلم الذي لا يغيب عنه شيء أبداً، حتى ما يكون في الضمائر، والسرائر، والنوايا. فلا غيب على الله تعالى. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من قوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الرغبة في رحمته التي منها إنزال الكتاب، القرآن العظيم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هداية وحجة لمن يصدق ويؤمن به. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

وبهذا أبطل تبارك وتعالى الشك بتقرير الحق في نزول القرآن بأنه منه سبحانه العزيز العليم، وأفاد هذا البيان عن عزته وعلمه سبحانه وتعالى بكمال العناية بكتابه القرآن العظيم، وأنه ليس محلاً للطعن، وأن هذا القرآن مُنَزَّلٌ ممن له كمال العزة والعلم والحكمة على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم. فلا ريب ولا شك في أنه من عند الله عَزَّ وجل. فَنَفَى بهذا البيان عن القرآن جميع طُعُون من طعن فيه زوراً وبهتاناً، وممن كذَّب به، ورماه بما لا يليق به، فنفى عنه بهذا الإعلام القطعي الشعر، والسحر، وأساطير الأولين، وسجع الكهنة. وكَذَّب بذلك جميع مفتريات المفترين، وطعون الطاعنين، وأثبت مصدره أنه من لدنه عَزَّ وجل، العزيز العليم.

فلما قرر جَلَّ جلاله أنه تبارك وتعالى هو الذي أنزل الكتاب، وأنه هو العزيز العليم. يخبر عن رحمته بعباده لمن استغفر وتاب، وأنه أيضاً شديد العقاب لمن كفر وتمادى في طغيانه ومعاصيه، فقال عَزَّ وجل ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فإن ربكم ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ أي: يمحو الذنوب عن المذنبين، بإزالة أثرها عليه، وسترها. والذنب هو كل قول وفعل يستوجب العقاب لمخالفته شريعة الله تعالى. وكذلك فإن ربكم يقبل التوبة ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ يقبل رجوع من رجع إليه بتوبته عما تاب منه من المعاصي. بما يفيد أن الله سبحانه وتعالى من رحمته يغفر ذنوب عباده، ويقبل توبتهم بكرم وفضل منه سبحانه وتعالى. وفي هذا عظيم الترغيب للعباد بأن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه. لأن التوبة مستوفية للندم من ذلك الذنب، والإقلاع عنه، والعزم على عدم العودة إليه. وفي هذا ترغيب للعباد بأن لا يجعلوا من ذنوبهم مهما بلغت سبباً في عدم رجوعهم للحق، بطاعة ربهم ودخولهم في الإسلام. فإن ربكم ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ فلا يأس ولا قنوط لكم أيها العباد إذا تبتم ورجعتم إلى رشدكم، بالامتثال لشرعه الكريم. وهي شاملة لكل معصية إذا تاب منها العبد. سواء من الكفر أو ما دونه. فإنه لا شيء يحول بين العبد والتوبة، مهما بلغت ذنوب المذنبين.

وفي المقابل فإنه سبحانه وتعالى شديد العقاب لمن استوجب العقاب ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ شديد في عقابه لمن أعرض عن الحق، وتجرأ على معصية الله تعالى بالشرك وعموم الكفر والذنوب، ولم يتب منها. كما أنه تبارك وتعالى ﴿ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾ الذي طال عباده بالنِّعَم، فهو صاحب الغنى، والإنعام والتفضل والإحسان، والثواب، ويشمل الطول السعة والزيادة والغنى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المنن والإنعام، التي لا يُطيقون القيام بشكر واحدة منها[1] فلسعة ما عنده سبحانه وتعالى فإنه هو المتفضل على الجميع بما طالهم من النِّعَم.

ثم يخبر الله تعالى بأنه الواحد الأحد، المتفرد بالألوهية، وجميع ما يتبعها، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فلا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، مما يترتب على ذلك أنه لا مثيل ولا نظير له عَزَّ وجل. ثم يتدرج البيان إلى الإعلام والإخبار بمصير الخلائق، فقال تبارك وتعالى ﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فإن المآب بعد انقضاء الدنيا إليه سبحانه وتعالى، فمرجع الجميع إليه يوم القيامة، ليكون الفصل والقضاء والحساب والجزاء، وكل

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٧٦/٤)

بحسب ما اكتسب من الخير أو الشر. وبهذا استوعب السياق كمال البيان لصفاته الكريمة، والباعثة على الطاعة والامتثال، وأنه لا شيء يحول بين العبد والتوبة، مهما بلغت ذنوب المذنبين.

ثم يخبر تبارك وتعالى بأنه بعد هذا البيان من الترغيب والترهيب، والتقرير للحقائق والحق، فإنه لا يكابر ويخاصم ويعاند الحق إلا المنكر الجاحد لجميع آيات ربه ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ فبعد أن قرر تبارك وتعالى لعباده أن القرآن العظيم كتاب العزيز العليم إلى عباده، وأنه أنزله ليكون هدى للعالمين، يذكر بعد ذلك أحوال المجادلين في القرآن الكريم، بهدف إبطال زعمهم وظنونهم، فيوضح جَلَّ جلاله بأنه ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لا يخاصم ولا يعاند في دلائل وحجج كتاب الله تعالى، القرآن العظيم ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إلا المنكرون الجاحدون للحق، الذين جحدوا براهينه وحججه.

وسَمَّى الله تعالى حججه وبراهينه ﴿ ءَايَٰتِ ﴾ لأنها علامات ظاهرات واضحات، ولتفيد معنى الحجج والأدلة والبراهين، ونسبها لذاتيه عَزَّ وجل ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ لبيان قوة مصدرها، بحيث لا يقابلها بالعناد إلا الفاسق المنكر لها بطراً واستكباراً. ثم حصر الإنكار لتلك الآيات في الكافرين، والكافر هو من يجحد الحق، وهو دين الله تعالى أو شيئاً منه، ولا يقر به ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ويدل معنى المجادلة ﴿ مَا يُجَٰدِلُ ﴾ أنه الإنكار والجحود والرد لآيات الله تعالى، ودفعها، ومقابلتها بالتكذيب والطعن بالأقوال الباطلة، والطعون الكاذبة التي مبناها الافتراء والاختلاق. وقد حصر الجدال لآياته سبحانه وتعالى في الكافر، وهو الْمُنْكِر، الذي يغطي إنكاره للحق بالباطل. ومما يفيد أن المؤمن المصدق لا يجادل فيها، لأنه قَبِلَ بها، فأدرك أنها الحق واليقين، فصدق وآمن بالآيات، ولكن الكافر أدرك الحق، وعرفه، فقابله بالإنكار، استكباراً وتعالياً على الحق، لما في نفسه من الهوى والغرور، والحسد والكبر.

ثم يوجه سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما يتصحح به الأفهام عن سبب عدم معاجلتهم بالعقوبة، مع تمتعهم بما هم فيه من النعيم، كالتجارة والتكسب، والصحة، وتنقلهم وتقلبهم في أرجاء الأرض، والاستمتاع بشهوات الدنيا المختلفة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ فينهى سبحانه وتعالى من أن تجعلوا من ذلك مثار تعجب، وتوهم وتناقض، ومثار تساؤل، عن كيف يكون هذا حالهم مع أنهم محاربون ومجادلون لكتاب الله تعالى؟ فلا يوهمنكم تمتعهم وتنقلهم بين الأمصار والأماكن بالتجارة والمكاسب، والاستمتاع بشهوات الدنيا وعدم الاستعجال عليهم بالعقوبة. مما يفيد أن حكمة الله تعالى هي الإمهال، وعدم الاستعجال،

لأنه المناسب لصفاته من الحلم والرحمة سبحانه وتعالى. فلعل هناك من يُسلم منهم لله تعالى، فيدخل في الإسلام. فلا تجعل من هذه المفارقات بين صنيعهم، وبين حلم الله تعالى عليهم مثاراً للغرور. قال بان جرير الطبري رحمه الله تعالى: فلا يخدعنك يا محمد تصرفهم في البلاد، وبقاؤهم ومكثهم فيها، مع كفرهم بربهم، فتحسب أنهم إنما أمهلوا وتقلبوا، فتصرفوا في البلاد مع كفرهم بالله تعالى، ولم يُعاجلوا بالنقمة والعذاب على كفرهم[١] مما يفيد أن العمدة في هذا الشأن وفي غيره هو الحق، فطالما أنهم أهل باطل فلا تغتر بما هم عليه من النعمة والتقلب في البلاد. وفي هذا تصحيح للتصور وللقياس عند الإنسان، بأن لا يغتر بما هم عليه أهل الفساد من الإمداد لهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، فإن لله تعالى الحكمة في تأخير ما يستحقون من العقوبة. فهو حليم سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان أن ورد التوجيه عاماً ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ ليشمل الرسول صلى الله عليه وسلم، وجميع المؤمنين في ذلك الوقت، وفي كل زمان ومكان. لتكون قاعدة عند كل مؤمن عندما يرى بعض العصاة يتقلبون في معاصيهم دون معاجلة لهم من ربهم بالعقوبة، فإن لله تعالى حكمة في ذلك، لعلهم يتوبون ويرجعون، أو لتزداد شدة العقوبة، فالحكمة لله تعالى، وأن الذي على المؤمن هو النظر للحق، وليس للإمهال. فقياسه على نوع الفعل، وليس على الإمهال.

ومن قوة إمداد الله تعالى لهم أن وصف سبحانه وتعالى حالهم بالسعة والرخاء، فهم يتقلبون في البلاد ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ والتقلب يفيد التنقل في أمن ورخاء من التحصيل. وفي ذكر البلاد، ما يفيد سعة التنقل بين أرجاء الأرض، بأسفارهم، وذهابهم وإيابهم، وتكسبهم، وانتعاشهم بما هم فيه من ذلك الحال. مما يفيد ألا يغتر المسلم بفساد الفاسدين، وإمهال الله تعالى لهم. ومن الفوائد: أن الكفار غير مُنْعَمٍ عليهم في الدنيا، وإن كان ظاهر حياتهم مليئة بالاستمتاع، لأن حقيقة النعمة والاستمتاع الحقيقي، هو الخلوص من شوائب الضرر العاجل والآجل، ونعمة الكفار مشوبة بالآلام والعقوبات. ومن الفوائد عدم الاغترار بالظاهر، وبالزائل، وأن العاقل يؤثر الباقي والدائم على الزائل، ويسأل الله تعالى البصيرة المباركة، التي يرى بها الحق حقاً فيتبعه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه.

ولَمَّا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد لهم الخير، ويحزن على كفرهم، وكذلك أهل الإيمان، فإن الله تعالى يبين أن لهؤلاء سلف سابق، ومن ذلك قوم نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً. فقال تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فلا تبتئس أيها الرسول

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٢٧٩-٢٨٠)

صلى الله عليه وسلم بما هم عليه من العناد والكفر والجدال لك، فقد﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ ﴾ فهناك من كذب قبل هؤلاء الكفار من قومك، إنهم ﴿ قَوۡمُ نُوحٖ ﴾ عليه الصلاة والسلام. ووصفهم بالكذب سبحانه وتعالى ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ ﴾ الذي يفيد الإنكار للحق مع وضوحه وظهوره وبيانه. وكذلك كذبت من بعد قوم نوح عليه السلام الأحزاب ﴿ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ فمن بعد قوم نوح عليه الصلاة والسلام، كذلك كذبت أحزاب كثيرة غيرهم. كقوم عاد وثمود، وقوم لوط، وغيرهم من تلك الأمم السابقة. ومن دقائق البيان أن سماهم الله سبحانه وتعالى بالأحزاب ﴿ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ لأن دلالة الأحزاب تفيد التجمع والتحزب، والتناصر، بأن كل رسول واجه مجموعة متحزبة ومترابطة، من المصادمين والمواجهين للحق ومحاربته. كما تفيد دلالة الأحزاب تشابههم في جميع من سبق من الأمم، فحالهم متشابه، وكأنهم متفقون، ومترابطون على الكفر بالمرسلين إليهم من الله سبحانه وتعال وبما معهم من الحجج والبراهين. فموقع ﴿ وَٱلۡأَحۡزَابُ ﴾ في السياق أعطاها رحابة في الدلالة، مع دقة المعنى والمقصد بأعلى ما يكون من البيان.

كما أنها وردت بصيغة الجمع ﴿ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ لتفيد الكثرة والتعدد. وبالتالي فلا تحزن أيها الرسول صلى الله عليه وسلم على ما كان من قومك ومن غيرهم، فإن لكم فيمن سبق عبرة، ليرتفع بها الحزن منكم على هؤلاء المجادلين لآيات ربهم سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بما كان من تلك الأمم والأقوام مع أنبيائهم، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ ﴾ فقد عزمت وشرعت وقوية إرادة كل أمة من تلك الأمم السابقة كقوم نوح، وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، بالعزم على إيقاع السوء على أنبيائهم، بطردهم أو تعذيبهم وقتلهم. وقد وصف الله تعالى حال صنيعهم بأمرين: أحدهما ﴿ وَهَمَّتۡ ﴾ والهم بالشيء هو العزم المؤكد والإرادة الجازمة على فعله وإرادة تحصيله والتمكن منه. والأمر الثاني: ﴿ لِيَأۡخُذُوهُۖ ﴾ أي: التمكن من الشيء، أي: نوت وعزمت على أن تتمكن منه لتقضي فيه ما تريد من القتل، أو التعذيب، أو الطرد. ليشمل ويستوعب جميع أنواع التمكن وطرقه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله[1] كما قال تعالى في سورة المائدة عن بني إسرائيل مع أنبيائهم ﴿ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٧٧)

كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ فقرر تبارك وتعالى أن هناك من الأمم من قتلت رُسُل الله تعالى إليهم، بالرغم مما معهم من الحجج والمعجزات البينات.

فدل معنى ﴿ وَهَمَّتْ ﴾ أنهم لم يتمكنوا من قتلهم جميعاً، لحفظ الله تعالى لهم، ولحكمته عَزَّ وجل فيمن قتلوه، فنزل العذاب بهم قبل أن يحققوا مرادهم. بما يفيد أن الأمر لله تعالى، وأن الله عَزَّ وجل يحفظ من يحفظه بحفظه. وأن الله تعالى معطِّل مكر وكيد الماكرين الظالمين. وأن الله تعالى ناصر رَسُولَه كما نصر مَنْ قبله من المرسلين. وأنهم لن يتمكنوا من الرسول صلى الله عليه وسلم، ليكون ذلك آية إعجاز. بل إن دلالات كل كلمة معجزة في اختيارها، وموقعها من السياق، فهي آية إعجاز، في تحقيق المقصد بأدق ما يكون.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما كانت عليه تلك الأمم والأقوام المكذبة من كثرة جدالهم الحق بالباطل كما فُعِل مع الرسول صلى الله عليه وسلم عند بعثته. فقال تعالى ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ فخاصموا وزيفوا وأنكروا رسولهم بالقول الكاذب والباطل من أجل إدحاض الحق وإزالته حتى لا يكون له قرار. فعاقب الله تعالى تلك الأمم بالهلاك والدمار، فقال جَلَّ شأنه ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ ثم بعد الإمهال أخذهم الله تعالى بالعقوبة، وجاء الأخذ بصورة مهيبة ومرعبة ومخيفة، إذ لم يذكر سبحانه وتعالى صفة الأخذ وهيئته، أو نوعه، وفي هذا الإخفاء من الرهبة، والتهديد، والتهويل والتحذير الشيء العظيم. ثم يزداد تهويلاً بالاستفهام ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ الذي يفيد التهديد والتقريع، فكيف كان عقابي الذي بلغكم عنهم، بما يفيد أنه يجب على من استهزأ بك أيها النبي من قومك، واغتر بإمهالنا لهم، فعليهم أن يتعظوا بمن سبق من الأمم، وبأن لا يغتروا، فإن لهم عبرة فيمن كان قبلهم، فعليهم الاعتبار بهم، فيتعرفوا على كيف كان عقابنا لمن سبق إن كانوا به جاهلين. فجملة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ تفيد عظيم التهديد والوعيد والتحذير، فإن كنتم لا تعرفون كيف كان عقابي فتبينوه، لتعرفوا شدته، بما يفيد عليكم الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم المكابرة، فيصيبكم ما أصاب المكذبين برسلهم من قبل.

ثم يتدرج الخطاب من الله تعالى إلى الحكم بالعذاب العظيم على من يشاقق هذه الحجج الواضحة، والبراهين الساطعة بالحق ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ فكما أن هؤلاء المجادلين الكافرين الخارجين عن الحق قد تعمدوا محاربة الحق، وموالاة الشرك عن علم ودراية وبيان، فإن عقابهم من الله تعالى هو الحكم عليهم بالنار، مما يفيد إبقاؤهم في الكفر، وعدم هدايتهم، جزاء لعنادهم ومشاقتهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. فكان الجزاء والعقاب من جنس العمل. أي: فكما كفر هؤلاء، وجادلوا وحاربوا الحق، وهموا بأخذ أنبيائهم، واستمروا على ما هم عليه من الكفر والعناد، ومحاربة الحق فإن

جزاءهم من جنس أعمالهم، فلهذا حقت عليهم كلمة الله بأنهم من أهل النار المصاحبين لها ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي: ثبت ووجب حكم ربك ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي: على الذين أنكروا وكذبوا بدين الله تعالى وحججه وبراهينه، فخرجوا عن الطاعة، وكفروا وكذبوا ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي: أنهم في الآخرة هم أهل النار المصاحبين لها. فهو جزاء من الله تعالى، وهو كذلك دال على علمه السابق سبحانه لما سيكون من عباده، فعاقبهم بعنادهم، أن حقت كلمة الله تعالى وحكمه عليهم أنهم أصحاب النار، فكان جزاء وفاقا لهم بما كان منهم.

وقد أفاد السياق الكريم أن العذاب كائن على كل من كفر ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ ليفيد التهديد للكافرين الذين هم على قيد الحياة، سواء في عهده صلى الله عليه وسلم أو فيما بعد ذلك إلى أن تقوم الساعة. فهو حكم عام على الكافرين ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ مصاحبين لها مصاحبة الملازم والملتصق بها، لا تنفك عنهم، ولا ينفكون عنها أبداً.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان رحمة الله سبحانه وتعالى وعنايته بالمؤمنين، وإظهار جدية ومثابرة الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله في ذكرهم لربهم بالتسبيح والتحميد والتمجيد، فقال جَلَّ جلاله ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فالملائكة الذين يحملون عرش الرحمن، الذي هو أعظم المخلوقات وسقفها. وكذلك الملائكة الذين هم من حول العرش يسبحون وينزهون ويذكرون ربهم بالتمجيد والتحميد. ويستغفرون للذين آمنوا.

ففي قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ ﴾ إثبات أن الله تعالى كلف ملائكة لهم قدر عظيم، ومنزلة رفيعة بأن يحملوا عرشه سبحانه وتعالى، كما أن هناك ملائكة أخرى هم حول العرش ﴿ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ ﴾ فجميعهم يقومون بعبادة لا تنقطع منهم ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ فيسبحون الله تعالى، تنزيهاً له عَزَّ وجل عن النقائص، ويقرنون ذلك التسبيح بالتحميد ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ الذي يفيد الحمد والشكر على ما أولاهم من المنزلة العظيمة الكريمة، والمدح والثناء لله رب العالمين بما هو أهل له جَلَّ جلاله، وقد زاد من مدحهم والثناء عليهم بما هم عليه من الإيمان ﴿ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ وهم مقرُّون له بالخشوع والذل والطاعة. مما يدل على منزلة الإيمان ومنزلة المؤمن عند الله تعالى، حتى أنه سخر الملائكة يدعون ويستغفرون للمؤمنين.

ومن رحمته جَلَّ جلاله أن هؤلاء الملائكة الذين يحملون العرش، وكذلك الذين هم حول العرش يسألون ويطلبون من الله تعالى أن يغفر للمؤمنين، فقال تعالى عنهم ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيسألون الله تبارك وتعالى أن يغفر للمؤمنين قائلين ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ فبدأوا واستفتحوا سؤالهم وطلبهم بالثناء على الله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ يا ربنا إن رحمتك قد اتسعت لكل، وشملته شمولاً كافياً، كما شمل علمك كل شيء، فأحاط به إحاطة تامة ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾ فاغفر لهؤلاء المؤمنين الذين تابوا إليك، وتركوا ما هم عليه من الذنوب، وعزموا على أن لا يعودوا إليها ﴿ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾ واتبعوا طريقك ومنهجك ودينك الذي أمرتهم به، بفعل الخيرات، وترك المنكرات ﴿ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي: واحفظهم وأبعدهم عن عذاب الجحيم الذي هو عذاب النار، واجعلهم في وقاية وحرز من العذاب برحمتك التي وسعت كل شيء، وبعلمك الذي عَلِمْتَهُ عنهم، فأنت علام الغيوب.

ومن دقائق الفوائد: أنهم بدأوا واستهلوا دعاءهم بالثناء على الله تعالى، مما يبين أدب الملائكة في الطلب والدعاء ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ وقد ذكروا الله سبحانه وتعالى ومجدوه وأثنوا عليه بخصلة الرحمة والعلم، لأن الذي طلبوه من ربهم تبارك وتعالى يقتضي الرحمة بالمؤمنين، وتم إقرانه بالعلم، الذي يفيد كمال العلم الذي لا يخفى عليه من حالهم شيء، فإنك أنت العليم بحقائقهم في الطاعة. ثم خَصُّوا من اتصف بخصلتين: إحداهما: التوبة ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ لِمَا في التوبة من الاعتراف بالذنب، والإقلاع

عنه، والعزم على عدم العودة إلى الذنب، فظهرت منهم الجدية والعزم على طاعة رب العالمين. والخصلة الثانية: الاتباع ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ وسلكوا هديك ودينك الذي أمرتهم به، وهو ﴿سَبِيلَكَ﴾ أي: الطريق الموصل إلى رضاك يا ربنا سبحانه وتعالى. مما يفيد أهمية التعاضد بين التوبة وبين جدية الطاعة. مما يفيد عظيم منزلة المؤمن عند الله تعالى، وعند الملائكة، وأنهم يحبون المؤمنين الطائعين، إلى درجة أنهم يسألون الله تعالى لهم الرحمة والمغفرة وإبعادهم عن الجحيم، وأن يدخلهم الجنة بسلام. كما يدل ذلك على منزلة ومكانة التوبة والرجوع عن المعصية إلى الطاعة، وكذلك منزلة الاستغفار، مما يُوجب كثرة ترديده.

ثم أكمل الملائكة الكرام طلبهم ورجاءهم من الله تعالى للمؤمنين بأن يكرمهم ويتفضل عليهم بإدخالهم الجنة، وأن يرافقهم الصالحين المطيعين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. فقال تبارك وتعالى عنهم، ويقولون ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فأضافت الملائكة على طلب وقايتهم الجحيم أن يكرمهم بدخول الجنة. فكرروا النداء بلفظ الربوبية ﴿رَبَّنَا﴾ بما يفيد الرجاء والتذلل، وتأكيده بالنداء والتوسل، فأنت ربنا يا الله. ثم سألوا إدخال المؤمنين الجنة، قائلين ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ ومن دلائل ﴿عَدۡنٍ﴾ وهي في وسط الجنة الذي هو أعلاها، فهي إقامة دائمة لا تنقطع، فهي: أعلى درجة في الجنة، وسقفه عرش الرحمن جَلَّ وعَز، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها[1] وهي جنات إقامة. أي يقيمون فيها إقامة أبدية، خالدين لا يموتون فيها، ولا يُخْرَجُون منها. فيتنعمون بجميل ولذائذ ما فيها، وهي جنات استقرار وثبات، قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى، أي: في جنات خُلْد، يُقال: عَدَن فلان بأرض كذا، أي: أقام[2] وعَدَنَ بالمكان: أقام به، وعَدَنَ بالبلاد توطنها. وعَدَن الأرض: سَمَّدَها. فهي جنات دائمة لا نهاية لها.

ووردت الجنة هنا بصيغة الجمع ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ لبيان كثرتها، وتعددها، وقرنوا ذلك الطلب بما وعد الله تعالى به، فقالوا ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ فهذه الجنات هي التي وعدتهم بها حين كانوا في الدنيا، مع أنها كانت في علم لغيب بالنسبة للمؤمنين، إذ لم يروها بعد، وهم في الدنيا، فآمنوا وصدقوا بها، فإن ما وعد سبحانه وتعالى به عباده متحقق لهم، فيأتون ما وعدهم ربهم به سبحانه وتعالى، ويعيشونه حقيقة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/٨) ملخص

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣)

وفي إيراد الوعد ﴿ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ ﴾ هو من باب تأكيد الحصول على ما وعدهم به تبارك وتعالى. فيا ربنا أدخلهم تلك الجنات التي وعدتهم بها، ليعيشوا ويتنعموا فيها معيشة لا تنقطع، ولا تتغير، كما وعدتهم يا ربنا، ثم أضافوا بعد ذلك الطلب للمؤمنين، أن يجمعهم بآبائه وأزواجهم وذريتهم، فقال تعالى عن طلب الملائكة، أنهم قالوا ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ ﴾ واجمع بهم من كان صالحاً من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، أي: اجمع بينهم يا ربنا لِيَسْعَدُوا وتقر أعينهم بالاجتماع مع أقرب الناس إليهم من أصولهم وهم الآباء، وممن عاشروهم من الأزواج، ومن فروعهم وهم الأبناء الذين هم من أصلابهم، والذي تتحقق وتكتمل لهم السعادة بالاجتماع بهم.

ثم يقرنون دعاءهم ومسألتهم ورجاءهم بتمجيد ربهم تبارك وتعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فأنت الذي له العزة بأكملها، والحكيم في تدبيره وقضائه، فهذا طلبنا والحكم لك، والعزة لك، وما تقضي به هو الحق يا ربنا. فهو أدب عظيم مع الرحمن الرحيم، صاحب العزة والحكمة الحكيم العزيز. فأنت يا ربنا المتصف بكمال العزة ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وكذلك أنت المتصف بكمال الحكمة ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير.

كما تضمن التمجيد قصر تحقيق مطلبهم على الله سبحانه وتعالى، كما قصروا صفة العزة والحكمة عليه وحده لا شريك له ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ إنك أنت يا ربنا، لا غيرك العزيز الحكيم. بل كرروا الحصر بالتأكيد، الأول ﴿ إِنَّكَ ﴾ ثم التعقيب عليه بقولهم ﴿ أَنتَ ﴾ المتصف بالعزة والحكمة. مما يعلم المؤمن كيف يتأدب مع ربه في الخطاب والسؤال والدعاء، فيمجد ربه عَزَّ وجل بما هو له من الأسماء الحسنى والصفات العليا.

ثم يطلبون من الله تعالى أن يتجاوز عما كان منهم من السيئات التي حصلت منهم في الدنيا ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ يا ربنا، ويا عزيز، يا حكيم، يا عليم: فإضافة إلى ما طلبنا وسألنا ورجونا مما سبق، فإننا نطلب ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ اجعل بينهم وبين سيئاتهم من الخطايا والذنوب ما يُبعدهم عن عاقبته، بالتجاوز عنه وتكفيره ومحوه، حتى لا ينالهم ما يستحقون على سيئاتهم، بل تجاوز عنها، واغفرها وامحها واسترها. ثم يعللون سبب ذلك ﴿ وَمَن تَقِ

ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ لأنه يا ربنا: من تمحوا عنه سيئاته وتسترها يوم القيامة فقد نالته رحمتك، ولطفك، فيتحقق لهم بهذه الرحمة منك الفوز العظيم يا الله ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فذلك الشأن والأمر الذي إذا تحقق لهم فقد فازوا وربحوا وظفروا بأعظم الفوز وأَجَلِّهُ الذي لا يعلوه فوز، وهي رحمتك بهم. اللهم يا أرحم الراحمين يا رب العالمين اجعلنا والمسلمين أجمعين ممن فاز بالفوز العظيم، بأن تكفر عنا سيئاتنا، وترحمنا وتدخلنا الجنة بغير حساب ولا عذاب، وتقينا عذاب جهنم وعذاب القبر بمنك وفضلك وكرمك إنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، يا رب العالمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

بعد أن أظهر الله تعالى منزلة المؤمنين من خلال محبة الملائكة لهم، ودعائها واستغفارها، ينتقل السياق الكريم إلى إخبار الله تعالى عما يصيب أهل الكفر من الخزي والعار حين يتم نداءهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بأشنع وأبشع الأوصاف، فقال تعالى عن حالهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ فإن الذين كفروا بالله تعالى يتم نداءهم، وهم في غمرات النيران يصطلون. ولم يذكر تبارك وتعالى المنادي لهم هنا، إذ قال عزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ لإفادة التهويل، وهم في غمرات النيران يصطلون. فتقول لهم الملائكة ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فإن بغض الله تعالى وسخطه عليكم أكبر وأشد ﴿مِن

﴿ مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي: أشد من سخطكم على أنفسكم وبغضكم لها غاية البغض، حين عاينتم العذاب الذي لا قِبَل لأحد به، بما يفيد عظيم غضب الله عَزَّ وجل على من كفر، بأنه أشد من لوم الإنسان لنفسه.

ثم يذكرون لهم السبب لهذا المقت من الله تعالى لهم، وكذلك من مقتهم لأنفسهم ﴿ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴾ حينما كان يُعرض عليكم الإيمان فتكفرون به، وتنكرون وتمتنعون عن التصديق والإيمان برسولكم، وبما معه من الحق الذي لا مرية ولا شك فيه. وفي هذا البيان من الله تعالى عن حال الكافرين عند دخولهم النار هو أيضاً إنذار لكل كافر بأنك إن لم تطع الله تعالى بالدخول في الإسلام، فإن مصيرك هو هذا المصير، كما أخبرك ربك به. فانتبه لنفسك، وقد قامت عليك الحجة والبرهان من كل وجه وباب، فلا عذر لكم يوم الجزاء.

ثم يخبر الله تعالى بما يُجيبون على ذلك النداء من الملائكة بقولهم كما قال الله تعالى عنهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ فقال الكفرة الذين في النار لربهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ أي: كنا أمواتاً، لا حياة ولا وجود لنا، ثم كنا نطفاً، ثم الانتقال من مرحلة إلى أخرى حتى وجودنا أحياء، بعد أن كنا أموات، فلا وجود لنا، فتلك هي الموتة الأولى. ثم أماتهم الله تعالى بعد أن صاروا أحياء في الدنيا. وأما قولهم ﴿ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ أي: هي حياتهم في الدنيا، ثم حياتهم يوم البعث. ثم يقرون بذنوبهم، وما كان منهم من الكفر في الدنيا، فيقولون معترفين ﴿ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ فنعترف لك يا ربنا بما كان من كفرنا في الدنيا ﴿ فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ فهل بهذا الاعتراف يتحقق لنا طريق العودة إلى الدنيا حتى نطيع ولا نكفر. تلك أمانيهم يوم القيامة، ويوم دخولهم النار. ولكن لا مكان لها، ولا قبول لها، فقد فاتهم زمن الإيمان والاعتراف، فاليوم بداية الجزاء للخلائق، فمن أحسن فقد أحسن لنفسه، ومن أساء فقد أساء على نفسه. مما يفيد التحذير لمن هو على قيد الحياة من هذا المصير، فإنها موعظة من ربكم لكم أيها الناس.

ثم يأتي إليهم الرد الحاسم والجازم، بتذكيرهم بما كان منهم في الدنيا ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾ فإنما أنتم فيه من العذاب هو بسبب ما كان مما تعرفونه من أنفسكم، وهو ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ ﴾ ذلك بأنه

عندما يُطلب منكم توحيد الله تعالى بعبادته وفق ما شرع، وإفراده بالملك والألوهية والربوبية ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ أنكرتم وحدانية ربكم عَزَّ وجل، واخترعتم له الشركاء، افتراء من عند أنفسكم. إلى درجة أنه في حال إيقاع الشرك بربكم تصدقون بأن له شريك ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ وأن يُشرَك به غيره تؤمنون بالشريك له، فتعالى الله عما يشركون، بل وتستجيبون لمن دعاكم إلى الشرك. وبهذا فقد تركتم توحيد الله تعالى. بما يفيد فلا سبيل للعودة إلى الدنيا، ولن ينفعك اعترافكم اليوم ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ فاليوم اقتصر الحكم بما حكم الله تعالى به، وهو لخلود في النار، بعد أن كان الأمر في سعة لكم من الدنيا، فامتنعتم عن الحق والصواب عندما كان الخيار لكم، فلم تستجيبوا لداعي الإيمان بالله تعالى، بينما استجبتم لمن دعاكم إلى الشرك بربكم عَزَّ وجل. وأما اليوم فلا خيار لأحد، لأن اليوم هو يوم الحكم والقضاء والجزاء.

وقد ورد ختام الرد عليهم بتمجيد الله سبحانه وتعالى ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ وهو ﴿ ٱلْعَلِىِّ ﴾ بذاته وقدره وقدرته، ومنزلته، وبقهره وسلطانه، وتدبيره، وحكمه. ﴿ ٱلْكَبِيرِ ﴾ في ذاته وصفاته، والكبير على كل شيء، فليس هناك من هو أكبر منه تبارك وتعالى، فله الكبرياء عَزَّ وجل، سبحانه وتعالى. فهناك في الآخرة يتفق العباد على أن الحق من الله تعالى، وأنه العلي وأنه الكبير، ولا يختلفون كما كانوا يختلفون في الدنيا، حتى أهل العذاب يرون ما هم فيه من العذاب هو الحق، لِمَا كان منهم في الحياة الدنيا من الكفر، فيقرون ويعترفون بأن الله تعالى لم يظلمهم بالعقاب والجزاء. فنسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة وحُسن الخاتمة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن دلائل آياته واضحة لجميع العباد، بأنه الله الواحد الأحد، الذي لا شريك له في ملكه وفي عبادته وألوهيته وربوبيته، فيقول عَزَّ وجل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ إن ربكم هو الذي يريكم في الدنيا دلائل قدرته، الدالة على وحدانية ربكم عَزَّ وجل، وهي جميع المظاهر الكونية المختلفة والمتعددة، التي تدل على وحدانية خالقها سبحانه وتعالى، وأنه لا شريك له في ملكه. وقد بدأ البيان بأسلوب الحصر في إيجاد الرؤية لكم أيها العباد ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ فلم يجعلها لغيره، بل منه لكم مباشرة، بتحصيلكم الرؤية لآياته المبثوثة في الكون مما تشاهدون، وبما يفيد لا عذر لكم وقد مكنكم ربكم من رؤية الحجج والإعجاز والدلائل والبراهين في هذا الكون. فبمجرد رؤيتكم للكون مما يحيط بكم، وفي أنفسكم، وتدبيره للخلق يتأكد وتتأكد لكم وحدانية ربكم تبارك وتعالى. ووردت الآيات بصيغة الجمع ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ليفيد كثرتها وتعددها وتنوعها.

ثم بعد التعميم للآيات يذكر منها عَزَّ وجل ما يتعلق بنزول الغيث، فيقول جَلَّ جلاله ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ فيُنَزِّلُ ربكم من السماء الرزق. وهنا قَصَرَ البيانُ مصدر الرزق على العلو والارتفاع، ففي العلو الأمر به، ومصدره، وتسخيره. وفي العلو السحاب، والأمر به، وتوزيعه، وإمطاره، وإيقافه. كما أن في دلالة علو الرزق ما يشير إلى أن المقصود به في الآية الكريمة هو المطر. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار، ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء[1] وقد ذكره وخصه سبحانه وتعالى بذلك لأن الله تعالى جعله سبب الأرزاق، فبنزول المطر ترتوي الأرض، ويزيد منسوب المياه في الآبار والعيون والأنهار، فيتم الزرع، ويتم البيع، ويتم الشراء، وتزداد التجارة به، وهو رزق الأبدان، فمنه الغذاء للأجساد. وكذلك هو سبب تنوع الأرزاق.

فبهذا الماء الذي أنزله الله تعالى من السماء يخرج الزرع بأنواع وأشكالٍ وأحجامٍ لا حصر لها من كثرتها، بل ومختلفة في ألوانها وأحجامها، ونوع أغصانها، وثمارها. فهو الإبداع العظيم في تنوع ألوانه، واختلاف أحجامه ومنتوجه. بل حتى في تعدد درجات اللون الواحد، فأعطى كل نوع ما يناسبه من الألوان، ومن الدرجة المناسبة له، فلا تجد لوناً لا يتناسب مع شكله وحجمه، بل إن ألوانها في تناسق بديع ودقيق مع أشكالها وأحجامها. وكذلك تظهر آياته سبحانه وتعالى في ثمارها المتنوعة: في طعمها، واشكالها، وألوانها، ومذاقها. فجميع ذلك آيات وحجج وبراهين ودلائل على أن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، وأنه واحد أحد لا شريك له في ملكه أبداً، وأنه على كل شيء قدير، وأن ما وعدكم به من وعود هي الحقيقة بعينها. سواء ما كان خاصاً بالبعث والحساب والجزاء، أو ما كان من البشارة للمؤمنين، أو غير ذلك.

ثم يبين سبحانه وتعالى الفئة التي يحصل لها العلم والاستذكار لنعم الله تعالى، وهي التي تنيب وترجع لربها جَلَّ جلاله، وتهتدي بما ترى من الحق والدلائل ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ فما يتذكر ويتعظ بتلك الآيات والحجج الباهرة على توحيد الله تعالى، ووجوب إفراده بالعبادة ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلا من اتصف بصفة الإنابة، وهي الرجوع إلى الحق إذا ظهر له، ولا يكابر أبداً. مما يبين أن هناك من لا ينيب للحق الظاهر بيانه، وذلك بسبب تعاليه واستكباره على الحق. فجزاؤه هو ما يستحقه من سوء العذاب. مما يفيد أن صفة الإنابة بالرجوع إلى الحق هي صفة المؤمنين، وأن على الإنسان أن يحذر من الكبر في جميع شؤونه، فإنه يدعو إلى البطر، وغمط الحق حقه. فأكرم وأنعم بها من موعظة من رب العالمين.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٨٠)

ثم تزداد الموعظة من الله تعالى لعباده بأن يوحدوه قبل أن يأتي اليوم الذي يسأل فيه العباد ربهم الرجوع والعودة إلى الدنيا ليوحدوه ويطيعوه، وذلك حين معاينة العذاب، فيقول عَزَّ وجل ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فاتجهوا مخلصين القصد في الدعاء والدين كله لله وحده لا شريك له، وذلك بعبادته وحده كما أمركم به، ولا تكترثوا بالمشركين ولا تهتموا ولا تلتفتوا إلى كراهتهم لتوحيدكم الله ربكم. مما يفيد شدة حنق المشركين على المؤمنين الموحدين ربهم. مما يعطي المؤمن درساً بأن لا يهتم ولا يلتفت إلى من يكره مسلك الإسلام وهديه، بل يسير إليه كما أمر جَلَّ جلاله، ولا يلتفت إلى المحاربين للدين، والدعاة للكفر، وترك تعاليم وأخلاق الدين.

ثم يذكر تبارك وتعالى عظمته وعظمة قدرته وجلال منزلته، فيقول جَلَّ في علاه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ فربكم سبحانه وتعالى مُتصف بأنه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ رفيع المنزلة والمكانة، بما يعني أنه جَلَّ جلاله فوق كل منزلة ومكانة في الكون، فهو صاحب العظمة التي لا بعدها عظمة، وصاحب الكبرياء التي لا بعدها كبرياء، وكذلك ربكم هو ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ صاحب العرش العظيم الرفيع، بارتفاع عرشه فوق كل الخلائق، بل هو سقف الكون كله عَزَّ في علاه.

ثم تدرج السياق الكريم إلى بيان المزيد من عظمته عَزَّ وجل في اختيار من يشاء من المرسلين، بما يُوجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي تُوجب توحيده، وإفراده بالعبادة جَلَّ جلاله، فيقول عَزَّ وجل ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ فربكم سبحانه وتعالى يُلقي الوحي على من يشاء من عباده، بما يعني أن الاختيار للرسل خاص به جَلَّ في علاه، فيختار من يشاء لرسالته، فيوحي إليه من أمره بما يشاء. وأن الغاية والهدف من ذلك هو ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ ليحذرهم من اليوم الذي يلتقي فيه جميع أهل السماوات والأرض في المحشر. فهو اللقاء بين المرسلين والمرسل إليهم، وبين المؤمنين وبين الكافرين، وبين الظالمين والمظلومين، وبين المشركين ومن أشركوهم، وبين الأولين والآخرين، وبين العاملين وجزاؤهم. فهو يوم التلاقي. لتأخذ كل نفس ما لها وما عليها. فهو يوم عظيم، أرسل الرسل لينذروا العباد بهذا اليوم العظيم، فيستعدوا له بالطاعة، ويجتنبوا المعاصي. مما يفيد رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يحذرهم من شأن ذلك اليوم، ويخبرهم ويعلمهم بالحقائق، وما سيسيرون إليه قبل أن يعيشوا ذلك اليوم. فلولا رحمته لما أنذرهم بجميع وسائل الإنذار. ومنها الكتب التي تعضد رسالة المرسلين للعباد. فالحمد والشكر على رحمته وهدايته، وبيانه للحق سبحانه وتعالى.

ثم يزداد البيان والتوضيح ليوم التلاقي، فيقول تبارك وتعالى ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ إن يوم التلاقي هو البروز ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ يوم هم ظاهرون فرداً فرداً أمام ربهم، وجماعات جماعات لله سبحانه وتعالى ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ فلا يخفى منهم على الله تعالى أحد أبداً، أو شيء من الأشياء، مهما كان ذلك الشيء، وبالتالي لا يخفى كذلك من أعمالهم التي عملوها في الدنيا شيء أبداً، سواء كان خيراً أو شراً، فلا يمتنع شيء عن الظهور والبروز. ولا مجال للتغطية والخفاء.

وحينها يقول الله تعالى للعباد ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ سؤال يقرر جوابه رب العباد، ويؤمن ويقر بجوابه كل الخلائق. فيقول عَزَّ وجل جواباً تقريرياً ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ إنه لله عَزَّ وجل. فيقرر لهم ما يقرون به في ذلك اليوم بأن الملك لله الواحد الأحد، المتصف بقوة القهر لمن عصاه ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ والذي يفيد المبالغة في القهر إلى أقصاه، بما يعني أن كل شيء مقهور بقهره سبحانه وتعالى، وأن كل شيء ذليل له ذلك اليوم. فالملك له وحده، فلا ملك لأحد من خلقه ذلك اليوم، فالجميع لا يملكون شيئاً أبداً. وجميعهم تحت مشيئته وإرادته وقهره لمن أراد أن يقهره من عباده العصاة الكافرين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما سيكون في ذلك اليوم الذي هو يوم التلاقي، فيقول عَزَّ وجل ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ اليوم تُعطَى كل نفس ما تستحق، وفقاً لما كسبت وحَصَّلَت في الدنيا، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، فهو اليوم الذي تُستَوفى فيه الأجور والأعمال من الله رب العالمين، كل بحسب ما قدم. ثم ينزه سبحانه وتعالى نفسه عن الظلم جَلَّ في علاه، فيقول عَزَّ وجل ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ ليس في هذا اليوم ظلم لأحد أبداً. فكل يستوفي حقه من خير أو شر.

كما يوضح تبارك وتعالى أنه على كثرة العباد إلا أنه تبارك وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ سريع في القضاء بين عباده. فربنا تبارك وتعالى مُنَزَّه عن التفكر والتأمل في القضاء، وكذلك لا يُقاس شأنه على عباده، فهو العليم بكل شيء عن كل أحد، من خير أو شر، ولا يغيب عن علمه شيء، فكل شيء حاضر، فلا غيب على الله سبحانه وتعالى. فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. فمن كرم الله تعالى ورحمته أن أوضح مشهد يوم التلاقي وكأنه حاضر أمام الموعوظين به، وهذا من رحمته بالعباد، إذ يخبرهم بما هم مقبلين عليه، ويعظهم به، وينذرهم من ذلك اليوم، ليرشدهم لطاعته وحُسن المآب، فمن استجاب فلنفسه، ومن لم يستجب فعلى نفسه

قد جنى. فالشكر والحمد لله سبحانه وتعالى على وعظه وبيانه، ونسأله بلطفه ورحمته أن يجعلنا من الفائزين برضاه وجناته، بكرمه ورحمته وفضله.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (١٩) وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٢٠) ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٢) ﴾

ثم بعد بيان الله تعالى ليوم التلاقي، يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يحذر وينذر الناس من يوم القيامة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ وأنذر أيها الرسول مشركي قومك وغيرهم من الناس. والإنذار هو التحذير، والتخويف بالحقائق ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ﴾ أي: يوم القيامة، بأنها أزفت وقربت. وهو اسم من أسمائها. قال قتادة ومجاهد وغيرهم رحمهم الله تعالى: إنه يوم القيامة[١] والأزف هو القرب. ثم يزداد البيان عما يكون من حال الإنسان يومها ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾ فمن قوة الفزع وشدته تتحرك القلوب، في ارتفاع عن موضعها من الصدور إلى الحناجر، وهم ممسكون ﴿كَـٰظِمِينَ ﴾ أي: حابسين لها بالمنع خوفاً من خروجها. فيحاولون ردها إلى موضعها في الصدور خوفاً من خروجها، فأصبحت معلقة وعالقة في الحناجر، إذ لم ترجع لموضعها من الصدور، ولم تخرج مع الأنفاس، مما يفيد قوة المعاناة وشدتها، وشدة هول يوم القيامة، التي لا يتمالك الإنسان نفسه من شدة ما يراه من أحوالها العظيمة. مما يدل على امتلائهم بالشدة والحزن والهلع والخوف. والكاظم هو الممسك للشيء على ما هو عليه، دون التصرف فيه.

ثم يخبر تبارك وتعالى بالتخصيص لحال الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وشركهم، فقال عَزَّ وجل ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ففي ذلك اليوم يفقد الظالمين ما كان بينهم من التناصر على

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٣٠٠)

الباطل. وسماهم الله تعالى بالظالمين ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ لأنهم ظلموا أنفسهم بما أوردوها من المهالك، وكذلك ظلمهم للحق برده، وظلمهم للمرسلين بتكذيبهم، وظلموا آيات الله تعالى وحججه بردها وإنكارها. فكان الظلم هو الصفة المطابقة مع ما كان منهم في الدنيا. ففي هذا اليوم ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: قريب ينفعهم، بمعالجة ما هم فيه من الشدة ﴿وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ ولا أحد منهم يستطيع أن يشفع فتُقبَل شفاعته. مما يبين انقطاع وانتفاء الأمل، وغياب ما كانوا يتناصرون به بينهم في شأن كفرهم ومعاصيهم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بكمال علمه وقدرته عَزَّ وجل، فيقول جَلَّ شأنه ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ فربكم أيها العباد لا يخفى عليه شيء البتة فإنه ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ وهي مسارقة العين بالنظر إلى الشيء خفية عن غيرها، حتى لا يرونه ويحسون به، ويعرفون منه ذلك. كمن يسارق بالنظر من يرافقهم أو يجلس معهم حتى لا يدركوا نظرته إلى ذلك الشيء. بحيث يتحقق له مراده من ذلك وهو معهم، ولكنه لا يتحقق له ذلك مع الله العليم سبحانه وتعالى، فلا تخفى عليه تلك المسارقة أبداً، مهما كانت خفتها وسرعتها. وقد ورد تسميتها بحالها التي هي عليه ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ لأنها خانت ما كان يجب عليه مع ربه سبحانه وتعالى من غض وكف بصره، وأن لا يسارق به إلى محرم. وقد تكون مسارقة النظر إلى غير محرم، كمن يكون في شغل مشغول به من الأعمال، وهناك من يعمل شيئاً قريباً منه، وهو خائف عليه، فيسارق النظر عما هو مشغول به تجاه ذلك الشأن. فالمقصد من ذلك هو العلم بدقة علم الله تعالى، وبما يُوجب الحذر من هذه دقة علمه بعباده، فلا يخفى عليه شيء من شأن وأمر العباد فرداً فرداً.

ثم يزداد التأكيد بالبيان والتفصيل من الأدلة على عظيم علم الله سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ فيتجاوز علم الله تعالى تلك الحركات الظاهرة من العين، والتي يتخفى بها عن غيره إلى دقة معرفته عَزَّ وجل بما هو في جوفه، من حديث النفس، وما يضمره في خاطره، وما ينوي به دون أن يفصح عنه. مما يبين عظيم علم الله جَلَّ جلاله، فيستوجب على العبد أن يراقب الله سبحانه وتعالى بإدراكه أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، وبالتالي فإن قضاء الله تعالى سيكون عين العدل وحقيقته، فلا حاجة له بغيره لتقرير ما كان من العباد فرداً فرداً.

ثم يبين تبارك وتعالى بتلك المقدمة عن إحاطته ودقة علمه بدقائق أعمال العباد، وما يضمرون في صدورهم، بأنه بناء على ذلك يقضي بالحق، وفق ما كان من العبد، فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ فربكم بناء على علمه الدقيق

بجميع ما كان من العبد فإنه يقضي بالعدل ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡضِى بِٱلۡحَقِّ ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر، ويعفو برحمته عمن يشاء.

ثم ينتقل إلى شأن المشركين وما كانوا يشركون به معه سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ فالذين كنتم تعبدونهم من دون ربكم ﴿ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ ﴾ لا يستطيعون أن يقضوا في شأنكم بشيء أبداً، لأنهم عاجزون في علمهم، وفي إدراكهم، وفي إرادتهم، بل إنهم عبيد لمالك الملك جَلَّ جلاله. ثم ينتقل السياق مباشرة إلى بيان كمال قدرته من العلم والرؤية الكاملة والمحصورة والمقصورة عليه تبارك وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ فإن ربكم فقط هو الذي أحاط بكل شيء سمعاً ورؤية. فأخبر سبحانه وتعالى عن ذاته الكريمة في شأن إحاطته بكل شيء ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ فإن الله تعالى هو لا غيره السميع ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ الذي يسمع كل شيء، وكل صوت من مخلوقاته، ومنها أقوال عباده، وما يكون بينهم، وما يتَخَفَّون به عن غيرهم، وما يناجي المؤمن به ربه، أو يخافت به غيره. وكذلك هو ﴿ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ الذي لا يغيب عنه شيء من أحوال الكون، وأحوال جميع خلقه، على كثرتهم وتعددهم وتنوعهم، واختلاف أماكنهم. وبالتالي لا يخفى ولا يغيب عليه عَزَّ وجل شيء من أحوال الناس، وحاجاتهم، فيعطي كلاً ما يستحقه في الدنيا والآخرة. وفي هذا تحذير للمشركين مما يخوضون فيه من الباطل، فإنه سبحانه وتعالى يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، فلا يعزب عن علمه تبارك وتعالى مثقال ذرة ولا أدنى من ذلك، بل هو محيط بكل شيء علماً وقدرة وتصريفاً.

وأفاد السياق الكريم قوة التأكيد بأن الله تعالى هو السميع البصير لا غيره، وأنه هو المخصوص بذلك، فلا يشاركه فيه غيره. فبدأ البيان بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ لتؤكد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ثم جاء لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ ثم تم الحصر باسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ فإن الله تعالى هو فقط لا غيره ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ الذي أحاط بكل شيء علماً بالسمع والبصر، وما يتبع ذلك من القدرة وكمال المشيئة. فأفادت جملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ قصر كمال السمع وكمال الرؤية له عَزَّ وجل، وليس لغيره من المخلوقات، فهو المتفرد بذلك. فكيف يذهل المخلوق عن هذا؟ فلا يخاف ويهاب ربه، وهو الذي يعرف منه كل شيء. مما يفيد جهل من يتخفى بالمعاصي، وجهل من عبد غير الله تعالى. وفي هذا كمال الإنذار للعباد من معرفة وعلم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علما ومعرفة وقدرة. وكذلك فيه ترغيب للمؤمنين بأن ربكم يسمع منكم، ويبصر أحوالكم، فلن يضيع مما تعملون شيئاً من الخير والطاعة. وسيجزيكم به خير الجزاء.

ثم يلفت سبحانه وتعالى أفهام وعقول المشركين وغيرهم من الصادين عن دينه وعن رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما يعرفونه من حقائق الأمم التي كفرت بالمرسلين عليهم السلام ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ ألم يحصل لهؤلاء المشركين أن ساروا في الأرض عند أسفارهم، فمروا وأتوا على ديار المكذبين الذين أهلكناهم بعذابنا، فيعتبروا بما فيها من آيات العذاب التي نزلت بغيرهم. فبدأ الخطاب البياني بسؤال يحمل الاستنكار لهم عن عدم تعقلهم واسترشادهم واتعاظهم بغيرهم ممن يعرفون من أحوال الأمم السابقة ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ألم يحصل لهؤلاء المشركين أن ساروا في الأرض عند أسفارهم، فمروا وأتوا على ديار المكذبين الذين أهلكناهم بعذابنا، فيعتبروا بما فيها من آيات العذاب التي نزلت بغيرهم. وهو سؤال يقرر لهم به أنهم قد سافروا من خلال رحلتهم التي أثبتها الله تعالى في سورة قريش، من رحلة الشتاء والصيف. فَيُوردُ الله تبارك وتعالى سؤالاً تقريرياً بما حصل لهم من النظر والمرور بديار أهل العذاب، وكذلك هو استنكار ولوم وتوبيخ لهم، إذ يستنكر به على المشركين والصادين والمنكرين والكافرين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يتعظوا بما رأوا.

وهو كذلك بلاغ وإرشاد للصادين عن الإسلام إلى السير في الأرض، ثم ينظروا فيما حل من العذاب بالكفرة من الأمم التي قبلهم، فيكون سيرهم لرؤية الدليل وما يتعظوا به من الآيات والحجج والبراهين ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ألم يحصل منهم السير في الأرض، وهو سؤال تقريع وتوبيخ وتقرير في نفس الوقت، فهو توبيخ وتقريع لعدم استفادتهم مما رأوا من أثار الهالكين بالعذاب، وتقرير ببقاء آثار الهالكين الذين أصابهم العذاب من الله تعالى. فاحذروا من تكذيبكم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فيصيبكم الله تعالى بمثل ما أصاب المكذبين من قبل.

فيثير البيان الكريم جانب التأمل والتدبر، والاتعاظ بما يرى الإنسان من آثار، وأن في إبقائها آية من آيات الله تعالى، للاتعاظ بها. ألم يحصل منهم السير في الأرض ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيتأملوا ويتفكروا فيما حصل من عذاب ودمار للأمم التي قبلهم، ممن كذبوا بِرُسُلهم، فحاق بهم العذاب. وفي هذا التوجيه الرباني ما يفيد: الإرشاد إلى السير نحو معالم الحق، والتفتيش والاستعلام عن الحوادث التي تؤكد الحق وبيانه، وأخذ العبرة، والاسترشاد منها للخير والحق، كما يفيد لزوم السفر في طلب الحق واستعلامه، والاتعاظ بالغير. ثم يخبر سبحانه وتعالى عن شدة قوة من كان قبلهم، مقارنة بقوة الْمُخَاطَبين

من أهل مكة من المشركين آنذاك ﴿كَانُوٓاْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ ﴾ لقد كان الذين من قبلكم أكثر وأقوى منكم في القدرات والإمكانات التي وهبها الله عَزَّ وجل لهم.

وقد تضمن التوجيه الكريم لفت الانتباه لحاسة النظر وأهميتها، في التبصر والتفكر والاستدلال على الحق ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ ﴾ فجملة ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ ﴾ تشد الانتباه، وتلفت حواس التلقي نحو التأمل، بتقليب البصر والبصيرة، وتقليب الفكر في حال من سبق من الأمم المكذبة، ليكتشفوا ما هم فيه من الباطل، وما سيكون من حالهم إن لم يتعظوا بغيرهم من الأمم السابقة. وتفيد دلالة ﴿كَيۡفَ ﴾ استثارة الذهن نحو تقليب الفكر في الحوادث، وما سينتج عنه، وما ينكشف لهم من الحقائق، وما انطوت عليه نفوسهم من الظلم والحسد والبغض.

ودلالة ﴿كَيۡفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور الإنسان ما يحيط ببهتانهم وجراءتهم على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالفاسد من القول والبهتان، وقلب الحقائق. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، يتفقه بها الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه. وقد زادت كلمة ﴿كَيۡفَ ﴾ من أهمية العمق في التأمل، وتقليب البصر والبصيرة. وأن كلمة ﴿فَيَنظُرُواْ ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَبين، بأن يتأملوا ويُمْعِنوا النظر في حال الأمم التي سبقتهم، ليعرفوا مخاطر التطاول والتمادي، ودواعي الغرور والبهتان، حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بفساد سلوكهم الذي جعلهم يكذبون كذباً لا لبس في بهتانه وظلمهم وتجرؤهم على الحق، وعلى من أُنزل عليه الحق، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي يدعوهم إلى الحق. مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب كلمة ﴿كَيۡفَ ﴾ بعد الأمر بكلمة ﴿فَيَنظُرُواْ ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، بما يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه في كل لفظة فيه. وهي تبين أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. وهي تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. مما يبين فضل الله تعالى في تمكين الإنسان من الحواس التي توصله إلى الحق، ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بعد توفيق الله تعالى. بل جاء التوجيه بالنظر مقترناً بأداة الاستفهام﴿كَيۡفَ ﴾ فقال تعالى ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ ﴾ والتي أفادت التنبيه، وتوجيه الذهن للاعتبار، والتأمل والتفكر. مما يبين عظمة أسلوب القرآن، ومقاصد ألفاظه الكريمة العظيمة.

فإن من صفات الذين كانوا من قبلهم أنهم ﴿كَانُوٓاْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ إذ حرثوا الأرض، فزرعوها بعد أن هيأوها بالحرث وجداول السقاء بالماء، وشيدوها بالقصور والمصانع، والزروع، ومجاري المياه، ونحت الجبال، وإنشاء النوادي لمجالسهم، فعمروها أكثر مما عمر أهل مكة وشيدوا، ومع ذلك لم تغنهم قوتهم وحرثهم وتشييدهم، وسكناها والتمتع بها. وكذلك من صفاتهم أنهم ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بقيت لهم آثاراً من كثرة وقوة أعمالهم، بالبناء والتشييد وحرث الأرض وزرعها بعد أن هيأوها بالحرث وجداول السقاء بالماء، وشيدوها بالقصور والمصانع، والزروع، ومجاري المياه، ونحت الجبال، وإنشاء النوادي لمجالسهم.

ومع تلك القوة من التمكين فإنهم عمروها أكثر مما عمر أهل مكة وشيدوا، ومع ذلك لم تغنهم قوتهم وحرثهم وتشييدهم، وسكناها والتمتع بها، فقد نالهم العقاب العظيم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ فلم يكونوا بتلك القوة معجزين لله تعالى في شيء، لأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ فبعد تكذيب المكذبين بالرُّسِل أخذهم الله تعالى بالاستئصال. فالأخذ هنا هو الاستئصال بالعذاب، بعد انتهاء زمن الإمهال ومدته. فأخذهم الله تبارك وتعالى بالعذاب الذي يستحقونه. وأفادت كلمة الأخذ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ كمال التمكن، بما يفيد تمام السلطة والقدرة عليهم أجمعين. ومن دقائق البيان أن أسند سبحانه وتعالى الأخذ له عَزَّ وجل ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لتعظيم وتهويل الأخذ، بأنه أخذ بعقوبة لا قِبَلَ لهم بها.

ثم علل وبين تبارك وتعالى سبب ذلك الأخذ الشديد ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ بسبب الذنوب من المعاصي، والكفر، وظلمهم للمرسلين، وكفرهم بآيات الله تعالى وحججه وبراهينه التي جاءتهم بها الرسل. مما يفيد التهديد والتحذير إن لم يستجيبوا لرسولهم صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فما أنتم بمفلتين من عذاب ربكم سبحانه وتعالى، لأنه عَزَّ وجل لا يصعب عليه شيء، فلا يعجزه شيء، وبالتالي فليس لأحد إمكانية التصدي لقوته وإرادته في الكون كله عَزَّ وجل، أو الهروب عن مراده وإرادته جَلَّ في علاه، فما بالكم بحالكم الضعيف أمام الكون كله.

ثم يخبر سبحانه وتعالى أنه لم يكن لهم من عذاب الله تعالى قوة تمنعهم وتقيهم من عذابه عَز وجل ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ فلم يكن لهم عاصم ولا واق يقيهم من عذابه تبارك وتعالى. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يفيد الإنذار عما هم عليه، وفيه تهديد وترهيب لهم ووعيد، لعلهم يخافون ويقبلون الحق. وهذا من رحمته تبارك وتعالى وعدله، بأن بين للكافرين مستقبلهم في الآخرة بأن لهم العقاب الشديد، وفي الدنيا

الاستئصال بالعذاب الشديد لمن كفر وتجبر وحارب المرسلين. فإن الله تعالى لا يأخذهم على جهالة، بل على علم وبيان وموعظة وترغيب وترهيب وتفصيل. فالشكر والحمد لله تعالى على تفضله وبيانه، وتحذيره. فيا من وسعت كل شيء رحمة وعلما اهدنا ووفقنا لطاعتك، وثبتنا بالقول الثابت، وأحسن خاتمتنا، واجعلنا من أهل القرآن الذي هم أهلك وخاصتك بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

ثم يخبر اللهُ سبحانه وتعالى بما كان من تلك الأمم التي نالها العذاب الشديد، فيقول عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ فذلك العذاب الذي نال تلك الأمم هو بسبب ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ كانت تأتي إليهم الرسل من الله تعالى بالحجج والبراهين والدلائل، فيقابلونها بالكفر ﴿فَكَفَرُواْ ﴾ فينكرون تلك الحجج، ويعارضونها ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: فأهلكهم الله سبحانه وتعالى. فبعد تكذيبهم بالرُّسل عاقبهم ربهم سبحانه وتعالى بالاستئصال. فالأخذ هنا هو الاستئصال بالعذاب، بعد انتهاء زمن الإمهال ومدته. فأخذهم الله تبارك وتعالى بالعذاب الذي يستحقونه. وقد أفادت كلمة الأخذ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ كمال التمكن، بما يفيد تمام السلطة والقدرة عليهم أجمعين. ومن دقائق البيان أن أسند سبحانه وتعالى الأخذ له عَزَّ وجل ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ لتعظيم وتهويل الأخذ، بأنه أخذهم بعقوبة لا قِبَلَ لهم بها.

ثم يخبر جَلَّ في علاه عن قوته وعزته، وشدة عقابه، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ إن ربكم أيها العباد متصف بالقوة في عقابه ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ ﴾ فهو ذو قوة لا يقهرها شيء، بل هو القاهر فوق عباده لكل شيء، فلا يغلبه ولا يعجزه شيء أراده. وأن عقابه سبحانه وتعالى متصف بالشدة ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ مما يبين شدة ما أخذهم به من العذاب. فعقابه لمن عاقبه شديد في قوته ونوعه. مما يفيد التهديد والتحذير إن لم يستجيبوا لرسولهم صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ

مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

بعد أن ذكر تبارك وتعالى إجمالاً ممن سبق من الأمم المكذبة، ينتقل البيان إلى ذكر طرفاً من قصة رسول الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون وقومه، ليكون موعظة للمشركين بما كان من عقاب الله تعالى، الذي يوضح ويبين لهم أن أخذه شديد العقاب. خاصة وان الله تعالى مَكَّن فرعون في الملك، وكانوا من أقوى الأمم وأشدها. ومع ذلك أهلكه ومن معه بالغرق. فقال تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ فلقد كان مِنَّا أن أرسلنا رسولنا موسى بن عمران عليه السلام ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بأدلتنا من المعجزات، التي تُثبت أن موسى عليه السلام رسول من عند الله سبحانه وتعالى، وهي التسع الآيات البينات كما وردت في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾﴾ وهي: الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدَّم، والعصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات. فهي آيات تبهر العقول، كالعصا واليد، وغيرها من الآيات الأخريات. وكذلك زوده الله تعالى بعظيم السلطة، فقال تعالى ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ وهي السلطة التي بها قد امتنع أن يلحقه الأذى من فرعون وأعوانه، كما قال تعالى في سورة القصص ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فهي القوة والقدرة التي يمنع بها الله تعالى قوة كل متسلط. فهي السلطة التي يتغلب بها موسى عليهم، فلا ينالون مرادهم منه أبداً عليه الصلاة والسلام. ومن ذلك سجود السحرة عندما التهمت عصا موسى حبالهم وعصيهم، فكان ذلك الحدث سلطان واضح بأنه رسول من الله سبحانه وتعالى. فهي تشمل الوقائع التي يقهر بها الله تعالى المكذبين.

ومن دقائق السياق الكريم أنه تم افتتاح البيان بأداة التوكيد والتحقيق المسبوقة بلام القسم ﴿وَلَقَدۡ﴾ لتفيد تأكيد البيان، كما أن في دلالة ﴿أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾ ما يفيد تعيين الرسول واختياره بأنه منه وحده لا شريك له، مع بيان العناية من الله تعالى بشأن العباد، كما أفاد قوله تعالى ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ ما يفيد أن الله تعالى إذا أرسل رسولاً زوده بالحجج والبراهين التي لا يكابر عليها إلا ظالم لنفسه، كما يمنحه سبحانه وتعالى سلطاناً من عنده عزَّ وجل فيعجز أعداؤه من أن ينالوا منه شيئاً.

فلقد أرسلنا رسولنا موسى عليه السلام بتلك الآيات والسلطان المبين إلى فرعون وقادة قومه المؤثرين فيهم ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ فحدد البيان في هذا المقام ثلاثة أفراد: وهم: فرعون ملكهم، وهامان، الذي هو وزير فرعون، وقارون من قوم موسى، الذي قد آتاه الله تعالى المال من الكنوز العظيمة التي تعجز من حملها العصبة الكثيرة من الرجال. وفي تحديد الثلاثة على اعتبار أنهم أظهرهم وأعتاهم، وأن بقية الناس تبعاً لهؤلاء الثلاثة، ففي تعيينهم إشارة إلى ما كان منهم من التحدي لموسى عليه السلام. ثم بين سبحانه وتعالى إجماع الثلاثة على قول واحد، وهو ﴿ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ فرموا تلك الآيات العظيمة بأنها سحر ساحر، والتي سجد السحرة كلهم لله تعالى بسببها. وكذلك رموه بالكذب، خوفاً على ذهاب سيادتهم على الناس.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما اتخذوه واعتمدوه لصرف الناس عن الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام، فقال تعالى عنهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ فعندما جاءهم موسى بالآيات المعجزات والحجج الظاهرة والمظهرة للحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام من عند ربهم، قابلوا ذلك بالتهديد والوعيد، فأول ذلك التهديد هو: ﴿ قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ وهو العزم بالمبدرة على قتل أبناء كل من أسلم وآمن مع موسى، واتبع دينه. بما يفيد الترهيب للناس من الدخول معه في دين الله تعالى. ولأمر الثاني هو: ﴿ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ أي: الإبقاء على النساء بعدم قتلهم، حتى يكونوا خدماً لقوم فرعون. ولكن تدبير الله تعالى أعظم من تدبيرهم. فإن نصر الله تعالى أقوى وأكمل وأتم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ فجميع كيد الكافرين ومكرهم، ومنهم فرعون، هو في سدى وضياع من الهلاك والذهاب والاضمحلال بقدرة الله تعالى.

فأوردها سبحانه وتعالى كقاعدة ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ لتشمل فرعون وغيره، بما فيهم الذين لم يتبعوا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، لإفادة التحذير والترهيب. فهي قاعدة وحكم من الله تعالى بأن كيد الكافرين للمؤمنين ضائع ومتلاشي، فلن يتحقق منه شيء، بل هو ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي: في تلاشي واضمحلال. وقد أخبر سبحانه وتعالى بذلك على سبيل أنها قاعدة، فلم يجعلها خاصة في شأن فرعون، بل ورد البيان بها على صيغة العموم، فقال تعالى ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

لتشمل عموم الكافرين، بل ورد البيان على سبيل تحجير كيد الكافرين بالقصر والحصر، بأنه ﴿فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ في ضياع وتلاشي.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بما كان من فرعون من التهديد لرسول الله موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ أي: اتركوا لي قتل موسى، واجعلوا لي شأن تدبير قتله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي: وعلى موسى أن يطلب من ربه أن يمنع عنه قتلي له. ليُشهر ويُظهر استعلاءه واستكباره، ويظهر قوته وتعاليه أمام أعوانه وأنصاره، بما يفيد لا يشغلكم ولا يهولكم شأن ما رأيتم من عصا موسى وغيرها.

ثم يُبين لهم سبب عزمه على قتل موسى عليه السلام ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أخشى عليكم من أن يغير ما أنتم عليه من الدين، فتعبدون غيري، فتخسرون دينكم، بدخولكم في دينه الذي هو توحيد الله عَزَّ وجل، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له. ثم ينقلهم للاحتمال الآخر الذي يخافه على قومه من موسى عليه السلام: فإن لم يتحقق منه ذلك، فإني أخاف عليكم وقوع الأمر الآخر، وهو ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ أي: ينشر فساد الاختلاف في الدين، فتظهر الفتنة في الأرض، ولم يقل: أو أن يظهر فيكم الفساد، بل جعله في الأرض، ليفيد التهويل وإظهار خطورة الأمر، بأن يتجاوزكم الفساد إلى عموم الأرض، كما هَوَّل تبديل الدين بقوله ﴿إِنِّىٓ ﴾ لإظهار عنايته بهم ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ أخشى عليكم، يقصد بذلك إبراز وإظهار حرصه الكاذب من أن يبدل دينكم ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ليفيد حرصه وعنايته بهم. ليتبين أن المجرم يجتهد في إلباس الباطل لباس الخير، إلباس الحق لباس الباطل، فجعل ظهور دين موسى، واهتداء الناس به هو مركز وعين الفساد، مما يعلم الناس الحذر من أهل الضلال والفساد، لأنهم يراعون مصالحهم الخاصة الدنيوية، حتى ولو خسروا الآخرة، لاستعجالهم الشهوات الدنيوية من الرئاسة وغيرها من استعباد واستجهال الناس واستضعافهم.

فأجاب موسى عليه السلام على مقولة فرعون بما قاله الله تعالى عنه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ فقد استجار موسى عليه السلام بالله القوي العزيز ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ إنّي التجئ وأستجير بربي وربكم، فأستعيذ

به من شر مكركم وما نويتم عليه من الشر، ومن كفركم وتعاليكم على الحق. فأعلن لهم أن الله تعالى كما هو ربه، فهو ربهم، فهو القادر على الجميع بما يشاء. وفي هذا انذار وتهويل لهم من التمادي فيما هم عليه، وبما عَزَم وهَمَّ به فرعون. وجعل التعوذ بالله تعالى متوجه ومُنصَب عليهم ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ فجمع فيه جميع المتكبرين والمتعالين على الله سبحانه وتعالى، إلى حد أنهم ينكرون الحساب وما يتبعه من الجزاء ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ مكذب بيوم القيامة، الذي فيه البعث والحساب والجزاء. وفي هذا تذكير لهم بأن هناك يوم التلاقي، الذي نلتقي فيه، فيحاسب الله تعالى كلاً بما كان منه، من خير أو شر. مما يفيد الحكمة في الرد عليهم بالتذكير بما سيؤول إليه الجميع.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾

ثم ينتقل السياق الكريم في شأن موسى عليه السلام وفرعون إلى ما كان من الرجل المؤمن، الذي يكتم إيمانه، فَحَذَّرَ قومه مما هم عازمون عليه في شأن موسى عليه السلام. فقال تعالى عن هذا الرجل المؤمن ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فتقدم رجل مؤمن يخاطب قومه محذراً لهم مما هم عازمون عليه من قتل موسى عليه السلام، وأول صفة تعريفية له أنه مؤمن ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ يؤمن بالله تعالى، ومؤمن بصدق موسى عليه الصلاة والسلام، وأنه رسول من الله تعالى، وبجميع أركان الإيمان. وقد قدم البيان الكريم هذه الصفة على جميع ما تلاها من أوصاف، لبيان منزلة الإيمان وقوته في دفع صاحبه إلى

الطاعة وإحقاق الحق، والصفة الثانية: أنه ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: من جماعة فرعون، أي: من الغبط، وليس من بني إسرائيل. والصفة الثالثة: ﴿ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾ مُتَخَفّي بإيمانه بالله تعالى، مما يدل على أن إظهار الإيمان يُعرضه إلى الأذى، كالتعذيب أو القتل. مما يدل على شدة جبروت فرعون في قومه، وأنه لا يسمح لأحد أن يتخذ إلهاً غيره، كما يدل ذلك على قوة سلطة فرعون وبطشه وجبروته.

فقال الرجل المؤمن لقومه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ واجمهم بسؤال استنكار، كيف تقتلون رجلاً لم يفعل شيئاً إلا أنه يقول ﴿ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ بما يفيد أن ذلك ليس سبباً لأن يُقتل به الإنسان. ثم يعضد ذلك بقوله ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ فإن هذا الرجل الذي هو موسى عليه السلام قد جاءكم بالمعجزات التي هي الحجج والبراهين من ربكم. بما يفيد ويؤكد صِدْقَهُ، وأنه ليس من فئة المكذبين، بل إنه على حق بما جاء به من الآيات البينات الواضحات. وأن هذا الذي جاءكم به هو من ربكم سبحانه وتعالى، مما ينبههم به على وجوب الإيمان بموسى عليه الصلاة والسلام رسولاً من عند ربكم، وبما جاء به من الشريعة والدين.

ثم ينتقل بهم إلى خيار آخر فيما لو كان موسى عليه السلام كاذباً فيما يَدَّعيه ﴿ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ فإن كان غير صادق في دعواه وبراهينه فيما لو سلمنا له بذلك ﴿ فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ فكذبه عليه، فلم يجبركم على الإيمان، ولن يضركم الذي قاله، بما يفيد: أن ترككم له فيما لو كان كاذباً هو الصواب بعينه.

ثم ينتقل بهم للاحتمال الذي يوقن بأنه هو الأصح، وأنه يؤمن به ﴿ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ فإن كان موسى عليه السلام صادقاً فيما جاءكم به، فإن ما يعدكم به من عذاب الله تعالى وسخطه سيحل بكم، بمعنى أن قتله مصيبة تصيبكم إن فعلتم ذلك، وفي هذا تحذير من اختيار القتل كوسيلة لمنع موسى عليه الصلاة والسلام مما يدعو إليه. وأما حال ترككم له فإنه لا يتعلق بذلك أذى يصيبكم. فعليكم أن تختاروا تَرْكَهُ ليكون أسلم لكم وأخير في حال أنكم لا تريدون أن تؤمنوا به. فواجه قومه بحكمة للدفاع عن رسول الله موسى عليه السلام.

مما يبين أهمية الحكمة في المعالجة، وكذلك أظهر هذا الموقف من الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه قدرة الله تعالى في تسخير القوة ومزيد الحجة لنبيه ورسوله وكليمه موسى عليه السلام، كما يفيد ذلك توفيق الله تعالى للمؤمن، بتسديده في القول والعمل. كما يفيد أن الإيمان يدفع المؤمن للعمل الصالح، ومنع الظلم بالحكمة.

ومن فوائد ذلك أهمية الحكمة بما يناسب المقدرة، فلم يجاهرهم بإيمانه، ويصادمهم بما لا يستطيع، مما يبين أهمية الحكمة في التعامل، وأنها منهج العقلاء.

ثم يبين لهم حقيقة عظيمة، تؤكد أن العاقل لا يمكن له أن ينكرها أو يعترض عليها، وهي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾ فجعلها قاعدة يحتكمون عليها بعقولهم. وهي تجمع جميع فروع ما دلت عليه الآية من الدلالات العظيمة. فإن الله تعالى لا يوفق للهداية إلى الحق من كان متصفاً بصفتين: الإسراف والكذب ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾ فالصفة الأولى: الإسراف، وهو المتجاوز للحد في البغي، والصفة الثانية" هي الكذب، وهو الذي يجحد الحق، ويصفه بالباطل، فَيُلْبِس الحق ثوب الباطل، ويُلبس الباطل ثوب الحق. فهو الجحود للحق. وبالتالي يلزمهم تطبيق هذه القاعدة. فإن اتصفوا بالإسراف في رد الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، وتكذيبهم للحجج الواضحة الظاهرة، وجحودها فقد ارتكبوا الكذب، وبالتالي فلن يهديهم الله تعالى، ولن يوفقهم، وسوف يخذلهم، وينتصر صاحب الحق الذي هو موسى عليه الصلاة والسلام.

وفي نفس الوقت هي رسالة لهم عن شأن موسى عليه السلام، بأن يتفحصوا شأنه، فيدفعهم إلى التأمل في موسى وحقيقته وما معه من الهدى والحجج، هل هو ﴿مُسۡرِفٞ ﴾ وهو المتجاوز للحد فيما يجب، من حيث تعامله، فهل هو متجاوز للحد في تعامله معكم، أو أنه وفق الحق، وفي حدود المعروف من التعامل. والصفة الثانية ﴿كَذَّابٞ ﴾ مفتري وهو المخترع في القول بخلاف الواقع. فهل موسى بما جاء به من الآيات يكون كاذباً؟ وفي هذا مدعاة لهم بأن يتأملوا في هاتين الصفتين، هل هي في موسى عليه السلام، فإن لم تكن فيه، فهو إذاً مؤيد من الله تعالى، وسيصيبكم الخذلان والوبال، وإن تكن فيه فسيخذله الله تعالى. وفي نفس الوقت هي رسالة لهم، فإنهم إن اتصفوا بالإسراف في رد الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، وتكذيبهم للحجج وجحودها فقد ارتكبوا الكذب، وبالتالي فلن يهديهم الله تعالى، ولن يوفقهم، وسوف يخذلهم، وينتصر صاحب الحق الذي هو موسى عليهم.

ثم ينقلهم بموعظة أخرى، وهي غاية في الإنذار، وفي بيان الحق. ويبدأهم بأحسن الكلام ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ فقد بدأهم بما يُلطف به أفئدتهم، ويروض به عقولهم ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ والتي تفيد النداء لهم بأجمل وأفضل أنواع العلاقات التي تربطه بهم، فتضمنت النداء، لإفادة الانتباه والاصغاء بتعقل، واهتمام وعناية منه بهم، وأنه واحد منهم، وأنهم يشكلون له الانتماء والقوة، وأنه واحد

وجزء منهم، فأنتم قومي، ففي دلالتها إعلان محبتي الخير لكم، وحرصي عليكم. ثم يتدرج بهم في لطف إلى بيان وإظهار مكانتهم ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ فالملك والقوة اليوم هي لكم، فأصبحتم ﴿ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وهو البروز والغلبة والاستعلاء في أرض مصر، بما يبين لهم أثر النعمة التي تجاوزت الأفراد إلى جميعهم، بأن أصبحوا أهل ملك، وظهور على غيرهم، ليخرج بهم من ذلك في تدرج دقيق إلى الحقيقة التي يجب أن يدركوها، ويسيروا وفقها ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ فما هو الذي يمنعنا ويصوننا فيما لو حَلَّ بنا عذاب الله تعالى، فمن يحمينا بالنصر والقوة ﴿ مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ أي: من عذاب الله تعالى فيما لو حَلَّ بنا، بسبب كفرنا بموسى وما جاء به من البينات والحجج من ربه سبحانه وتعالى. وفي هذا تحذير من أن ينزل عليهم عذاب الله تعالى وسخطه بهم، بعد أن تدرج معهم من بيان النعمة، وقبلها اللطف بالنداء والانتماء.

ولما سمع فرعون بهذا الكلام من هذا الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه قال بما ذكره الله تعالى عنه ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ قال فرعون لقومه: ما أشير عليكم إلا بما أشير به لنفسي ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ وفي هذا مبالغة لهم منه في الادعاء بالنصح لهم، وهو يسعى بذلك لتثبيتهم على ما هم عليه من الطاعة والاستسلام لنفسه، فهو أراد لهم الشر ليتحقق الثبات له على ما هو عليه من الطغيان. ثم أسند ادعاءه الكاذب بقول آخر، وهو ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ وما أدعوكم وأرشدكم إلا إلى الطريق والسبيل الذي يتحقق لكم به الرشد من الفلاح والهداية. بما يعني أن من يخالفني فيما أرى فقد سلك السبيل الباطل، وبما يفيد التحذير من مخالفته، والتحذير من أن يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

وقد أورد كلامه بما يفيد غاية المبالغة، حيث حصر مراده لهم فيما يتحقق لهم به الخير لذاتهم، وليس له فيه شيء يخصه منه. فتضمن البيان النفي في الجملتين، ابتداء بالقول ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ ﴾ وفي الجملة الثانية ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ ﴾ وكلاهما نفي لكل رأي منه، ولكل هداية لهم إلا وهي محصورة في مصلحتهم فقط، ففي الجملة الأولى والثانية: قصر نصحه وهدايته لهم فقط بحرف الاستثناء ﴿ إِلَّا ﴾ الذي يفيد الحصر والقصر على أنه لمصلحتهم ﴿ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ وكذلك ﴿ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ فدل ذلك مبالغته لهم، وهو يكذب عليهم، ليتحقق بذلك طاعتهم له، والتكذيب بموسى عليه السلام، فاستخدم أسلوب الخداع. مما يبين أن من يكفر

بالله تعالى فليس له أمان، وأن من امتنع عن خير الآخرة لنفسه، فلن يترك غيره يذهب إليه، وأن من خدع نفسه يخدع غيره، ومن أضل نفسه، سيضلل غيره. وأن أهل الباطل يريدون دوام باطلهم، وأن يزيد باطلهم ولا ينقص، وأنهم يستخدمون جميع وسائل الارتقاء بباطلهم، وإضفاء الرشاد عليه. وُيلبسونه لباس الحق زوراً وبهتانا. مما يفيد الحذر ممن كان أصله قائم على الباطل.

ثم يخبر الله تعالى عن الرجل الصالح المؤمن الذي يكتم إيمانه، بما قاله لقومه ناصحاً وباراً لهم في نصحه وخوفه عليهم من نتيجة ومغبة كفرهم، وعدم اتباعهم لموسى عليه السلام ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ فكرر النداء لهم صدقاً بأسلوب التلطف والرجاء ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ﴾ يا عشيرتي وأهلي ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ إني أخاف أن ينزل بكم مثل ما نزل بمن قبلكم ممن تكالبوا وتحزبوا ضد أنبيائهم، فأنزل الله تعالى عليهم العذاب. أي: أخاف عليكم مثل ما نزل من العذاب على من كان قبلكم من الأمم الماضية، الذين تحزبوا على من جاءهم من المرسلين.

ومن دقائق البيان هو إفراد الأحزاب بكلمة يوم ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ ليفيد تشابه اليوم، وكأنه يوم واحد من حيث نزول العذاب، وليس من حيث نوعه. وقد دلت الأحزاب وأفادت التجمع والتحزب، والتناصر، بأن كل رسول واجه مجموعة متحزبة ومترابطة، من المصادمين والمواجهين للحق ومحاربته. كما تفيد دلالة الأحزاب تشابههم في جميع من سبق من الأمم، فحالهم متشابه، وكأنهم متفقون، ومترابطون على الكفر بالمرسلين إليهم من الله سبحانه وتعال وبما معهم من الحجج والبراهين. فقد وردت ﴿ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ بصيغة الجمع، لتفيد الكثرة والتعدد. بما يفيد انتبهوا يا قومي لما أقوله لكم، وفكروا، وإن لم تؤمنوا فلا تواجهوا موسى عليه الصلاة والسلام بالأذى. وفيه تلميح وتوجيه بأن لا تحزن أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، على ما كان من قومك ومن غيرهم، فإن لكم فيمن سبق عبرة، وفي ذلك تهوين من أثر تحزب المشركين ضد الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي نفس الوقت تهديد للمشركين، وليزداد بذلك الخوف والهم والحزن على هؤلاء المجادلين لآيات ربهم سبحانه وتعالى.

ثم زاد في التوضيح بتدرج بديع، فنقلهم من العموم إلى التعيين، فقدم لهم الأمثلة التي تؤكد حقيقة نصحه لهم، بأنه يكلمهم بعلم ومعرفة، فذكر وعَيَّن لهم بعض تلك الأمم التي أصابها العذاب ﴿ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ أي: مثل ما كان من قوم نوح وعاد وثمود فيما كان من حالهم من البقاء على التكذيب؛ فحصل لهم العذاب من الله تبارك وتعالى. وكذلك يفيد المعنى: أن حالكم مثل حال قوم نوح، وعاد، وثمود، وكذلك مثل ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ أي: الذين تابعوهم وقلدوهم من

الأمم التالية لقوم نوح وعاد وثمود. مما يفيد أن لدى الغبط معرفة بما كان من حال الأمم السابقة، ومنهم فرعون وقارون وهامان.

ثم يبين لهم مراد الله تعالى ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ إن الله تعالى ما أراد بأولئك العذاب عندما أصابهم به، لأنه عَزَّ وجل لا يريد الظلم لعباده، ولكنهم عاندوا الرسل، واستكبروا فحق عليهم العذاب بما يستحقون. وبما يعني أنهم ظلموا أنفسهم بتكذيب أنبيائهم فاستحقوا العذاب. أي: أنهم ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب من الله تعالى. وبما يفيد إياكم أن تظلموا أنفسكم، فتستحقون بذلك عذاب الله تعالى. فإن لكم فيمن سبقكم عظة وعبرة. فمن جميل البيان ودقته، أن نفى الظلم عن الله تعالى بما حاق بأولئك من العذاب ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ وهو احتراز منه أن يفهموا ذلك العذاب ظلماً لهم، فيكشف لهم بأن الله تعالى لا يريد لهم العذاب أصلاً، ولولا ذلك لما أرسل إليهم المرسلين. ففي إرسال المرسلين رحمة بهم، لتتحقق لهم الهداية، وليعلمهم المرسلون طريق ربهم المستقيم الذي ينجون به من عذاب الكفر. ولكنهم عاندوا المعجزات، والحجج والبراهين والآيات التي جاء به المرسلون فحق عليهم العذاب.

ثم يزداد الوعظ من الرجل المؤمن لقومه، بما يفيد شدة حرصه، وعلمه بربه، وبما كان من الأمم السابقة، وما يجب عليه وعلى قومه ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ فيا قومي إني أخاف عليكم يوم القيامة، فيكرر النداء ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ يا جماعتي، يا أهلي ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ فإني أخاف عليكم يوم القيامة، يوم البعث والحساب والجزاء. مما يبين شدة خوفه عليهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وهو خوف حقيقي صادق منه لهم. بعكس ما كان يقوله فرعون لقومه، ليُوجِب عليهم بكلامه ونصحه عذاب الدنيا والآخرة.

وأورد ابن الجوزي رحمه الله تعالى أربعة أقوال في معنى ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أحدها: أنه عند نفخة الفزع، ينادي الناس بعضهم بعضا. والثاني: أنه نداء أهل الجنة والنار بعضهم بعضا. كما ذكره تبارك وتعالى في سورة الأعراف. والثالث: أنه قولهم: يا حسرتنا، يا ويلتنا. والرابع: أنه يُنادي فيه كلُّ أناس بإمامهم. بسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء(١) فجميعها قد استوفاها ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ فكل موقف ينادي الناس بعضهم بعضا في الآخرة هو مواقف يوم التناد. ونسأل الله تعالى أن نكون ممن ينادون للخير والفلاح والفوز والنجاة.

ثم يزيد الرجل المؤمن من وعظ قومه وتحذيرهم من يوم القيامة، مما يدل على أنه من المؤمنين الصالحين ومن أهل العلم والطاعة لله تعالى، فيوضح لهم المزيد من البيان ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٢/٧)

عَاصِمٍۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ فإن ذلك اليوم، الذي هو يوم التناد، هو الوقت الذي تنصرفون إلى النار ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ ﴾ يوم تنصرفون عن ذلك الموقف إلى النار. قال قتادة رحمه الله تعالى: يوم تولون منصرفين عن موقف الحساب إلى جهنم[1] فأظهر لهم ما في ذلك اليوم من الامتثال للجزاء العظيم الشديد، الذي هو جهنم وبئس المصير.

ثم ينقلهم في ذلك اليوم إلى حالة فقدان جميع الْسُّبُل للحيلولة من العذاب ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ ﴾ ففي ذلك اليوم ليس لكم من حافظ ومانع يمنعكم ويحفظكم من عذاب الله سبحانه وتعالى. وفي دلالة هذا البيان ما يشد به انتباههم وفكرهم إلى عُزلت غيرهم عنهم، وعزلتهم عن غيرهم في التناصر، فلا فرعون ينصركم ولا أنتم بناصرين فرعون، فليس إلا أعمالكم في الدنيا هي الباب والطريق لكم للنجاة من عذاب ربكم.

ثم يخلص لهم القول والنصح، بأن هذا ما يجب من نصحي لكم، ومعلقاً الأمر بالله سبحانه وتعالى، ومقيده بمشيئته وإرادته، استسلاماً لله عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ فمن يتحقق فيه إضلال الله تعالى له بسبب عناده وتمرده، فليس هناك أحد كائناً من كان يستطيع أن يحقق له الهداية والرشاد للحق، أي هداية التوفيق. بما يفيد أنني بذلت وسعي لكم في النصح، الذي يمثل هداية الإرشاد، فإياكم والمكابرة التي قد يمنع بها الله تعالى عنكم هداية التوفيق. فإن قبلتم به؟ وإلا فعليكم أن تخشوا من غضب الله تعالى، فيعاقبكم بأن لا يوفقكم إلى هداية التوفيق، ويجعلكم ممن لا يهتدي، فإن حصل ذلك، فلن أستطيع أنا ولا أحد في الدنيا أن يهديكم ويحقق لكم هداية التوفيق. وهنا لم يقل لهم: إن يضللكم الله فمالكم من هاد، بل ورد البيان كقاعدة لكل أحد من الناس ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ من غير تعيين أنهم هم المعنيون، ولكن أظهر وبين لهم التحذير من أن يكون حالهم هذا هو الحال الذي يبقون ويستمرون عليه. فإن لم ترعنوا للحق، وتطيعوا من يدعوكم لدين الله تعالى، وهو موسى عليه السلام فاحذروا إضلال الله تعالى لكم.

فقد عَرَض عليهم قاعدة نفيسة، وهي ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ فإن من يضلله الله سبحانه وتعالى عقوبة له بسبب عناده واستكباره، ومحاربته لدين الله تعالى ﴿ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ فليس هناك أحد يستطيع أن يهديه، ويجعله يلزم شريعة الله تعالى. لأن الله تعالى ما أرسل الرسل وأنزل الكتب إلا ليهتدي العباد بها. ولكن قد يعاقب المتجبرين بمنعهم من الهداية، ليكون مصيرهم إلى النار، فجعل عقوبة الدنيا سبيل لعقوبة الآخرة.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٣٢٠)

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ
قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾
ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ
ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

ويستمر الرجل الصالح المؤمن الذي يكتم إيمانه في بيان الحق لقومه الأقباط، فينتقل بهم إلى ما كان من أسلافهم مع نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ يخاطب الرجل المؤمن قومه بما يفيد أن حالهم مشابه لحال قومهم من قبل مع نبي الله يوسف عليه السلام ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ﴾ لقد جاءكم يوسف قبل مجيء موسى عليهما السلام ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الحجج والبراهين الواضحة الظاهرة والدالة على أنه نبي من الله تعالى، ومع هذا ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ فلم تؤمنوا بسبب شككم فيما جاء به من البينات الواضحة الدلالة على نبوته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي: توفي ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ فكفروا به في حياته، وكفرو بمن بعده قبل مجيئه، فجزموا بأن الله تعالى لن يبعث رسولاً، وظننتم أن الله تعالى لن يجدد إقامة الحجة عليكم، فحكمتم وكأنكم اطلعتم على الغيب. بما لا يليق بمقام الله تعالى. مما يفيد الجرأة بالتعدي على حقوق الله عَزَّ وجل. وكذلك يفيد قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ دليل على اعترافهم برسالته بعد أن هلك، مع اليأس من تجدد إقامة الحجة. فأوقفهم الرجل المؤمن على واقع الحال، وما يجب أن يستفيدوا مما مضى، وأن لا يكونوا كمن سبقهم.

ثم يعضهم بموعظة يحذرهم فيها من أن يُضلهم اللهُ تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾ وبمثل ذلك الضلال يُضل الله تعالى كل ﴿ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾ والمسرف هو من تجاوز الحد بمعصيته في الإنكار؛ مع وضوح الحق وبيانه، ومضيفاً الارتياب إلى إسرافه في الكفر، وهو اختلاق الشك في الآيات الواضحة. مما يفيد خطورة مخاطر المبالغة والإسراف في الإنكار للآيات والحجج الواضحة، واختلاق الشك، فيطبع الله على قلوبكم بما أسرفتم في محاربة الحق، فيمتنع عنكم الإيمان والتصديق، فتموتون كفاراً على ما أنتم عليه. بما يفيد أن معصيتكم بإنكار موسى عليه السلام، وما معه من الحجج والبراهين قد تجاوزتم فيها إلى حد الإسراف؛ بالمبالغة في الإنكار والتكذيب إلى حد التحزب ضده، وإرادة قتله، واختلاقكم الشك والريبة من غير وجود لها أصلاً. فهي موعظة بالشواهد المتدرجة حتى وصل بهم إلى آخر نبي قد بلغهم وهو يوسف عليه الصلاة والسلام.

ثم يذكر الرجل المؤمن جُرم الذين يجادلون في حجج الله تعالى وبراهينه بغير دليل ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ فالذين يدفعون ويصدون حجج الله تعالى وبراهينه من الآيات والمعجزات التي جاء بها المرسلون، فيدفعون الحق بالباطل ﴿ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ من غير دليل ولا برهان معهم من الله تعالى، بما يفيد أنهم اختلقوا واخترعوا جدالهم، حتى تعاظم جرمهم عند الله سبحانه وتعالى، فاستوجب مقته لهم.

فوصف الله تعالى ما كان منهم بأنه ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فقد تعاظم إفكهم وبهتانهم عند الله تعالى وعند المؤمنين، وسماه سبحانه وتعالى بالمقت ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا ﴾ أي: تعاظم شدة البغض والغضب، لتعاظم جرمهم ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فقد تعاظم جرم هؤلاء، باشتداد بغض وغضب الله تعالى عليهم، بسبب تعاظم جدالهم بالباطل. مما يفيد قمة التشنيع لهم من الله سبحانه وتعالى، مما يدل على شدة العقاب لهم من الله سبحانه وتعالى. بل إنه من شدة وضوح بهتانهم وجدالهم للحق أن المؤمنين كذلك مقتوهم وأبغضوهم أشد البغض، فجمع الله تعالى إلى بغضه بغض المؤمنين عليهم ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وكذلك الأمر والشأن عند المؤمنين باشتداد بغضهم لذلك البهتان والتكذيب ولمن اتصف بهذا الجدال الباطل. فقد كان المجادلون للحق بالباطل محل بغض وتشنيع من الله تعالى ومن المؤمنين. مما يفيد أنه قد تعاظم جرم هؤلاء، باشتداد بُغض الله تعالى وبغض المؤمنين عليهم. مما يفيد معية المؤمنين وموافقتهم

لمنهج ربهم، ودليل على أن النفوس الطاهرة بالإيمان تمقت الفسوق، لشناعته وشناعة جرمه، وبيان لهم بأنه باطل ظاهر، ومُتجلي بطلانه وفساده.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى جدالهم بصيغة الاستمرار ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ حيث ورد الجدال منهم بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي أفاد عنادهم من خلال استمرارهم في الجدال للحق بالباطل، بغية نصرة الباطل على الحق. فأعطت دلالة ﴿يُجَٰدِلُونَ ﴾ تكرار ما يعاندون به، بما يفيد قوة العزيمة والإرادة والإصرار على مرادهم الباطل، مما يدل على استكبارهم، وأنهم يحملون التجبر في قلوبهم. ليوهموا غيرهم بالتلبيس أن هذا الهدى ليس بهدى، وأنه باطل. حتى لا يتوجه الناس لاستماع الحق، فيدركونه فيؤمنوا.

وأفاد قوله تعالى ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ أنهم يجادلون من غير حجة، لمجرد العناد والاستكبار، فقد نفى البيان العظيم عن جدالهم السلطان والبرهان. فلو كان جدالاً صحيحاً لكان مبني على أدلة من الله تعالى ﴿أَتَىٰهُمۡ ﴾ لكن جدالهم ليس فيه شيء من سلطان الحق، ليثبت بهذا النفي إثبات الباطل من كل وجه. كما أفاد هذا البيان من الله سبحانه وتعالى أن كل جدال لحجج الله تعالى هي باطلة فاسدة، ولا تقوى على حجج الله تعالى. وأن حجج الله عَزَّ وجل لا تقاومها الافتراءات، وأنها مندحرة ضالة.

ثم يأتي التحذير من عقوبة الله تعالى بمثل ما كان مع مَن ماثلهم ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ فكما طبع سبحانه وتعالى على قلوب من سبقهم من المتكبرين، بأن حرمهم من الإيمان، جزاء وفاقاً لهم ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ ﴾ أي: يختم الله تعالى بمثل ذلك، لأن الطبع هو الختم ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ فكذلك وبمثل ذلك الطبع بالكفر، يطبع ويختم الله تعالى على قلب كل متصف بالكبر ﴿قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ ﴾ وهو المستعلي بنفسه على غيره، وعلى الحق بما عنده من الباطل، والصفة الثانية أنه ﴿جَبَّارٖ ﴾ أي: التجبر بالقسوة على الحق، حتى يمتنع قلبه عن قبول الإيمان، فلا يدخل في قلبه الإيمان، فيموت على كفره. وذلك عقوبة له من الله عَزَّ في علاه. فاحذروا من أن ينالكم غضب الله تعالى بسبب تكبركم وتجبركم على ما جاءكم من الحق مع رسول الله موسى عليه السلام. وفي هذا زجر وتفظيع لمن كان هذا صنيعه مع آيات الله تعالى وحججه.

ومن الفوائد أن في إضافة الكبر والتجبر إلى القلب ﴿ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ ما يدل على أن القلب هو محور القسوة والعناد، كما أنه محور القبول والتقبل. وأن هذا القلب هو محل الخير ومحل الشر. مما

يتطلب ويفيد أهمية الانتباه إلى هذا القلب، فإن وجد الإنسان في قلبه شيء من الكبر والقسوة والتجبر، عالجه بالانكسار والتواضع للحق، وبأن لا يطاوعه في الباطل، وأن يلتجئ إلى الله تعالى، فيسأله أن يهدي قلبه، وأن يعطفه على الحق، وقبوله، والإذعان له. ولذلك فإن الانشراح والضيق والحرج والخفقان والاكتئاب، والمشاعر النفسية جميعها في هذا الموطن العظيم من الإنسان، الذي هو القلب، فإن القلب هو مركز التحكم، وهي المضغة التي قال عليه الصلاة والسلام عنها (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[١]

وقد أفاد قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ تفسير ما سبق وهو قوله تعالى ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ فإضلال الله تعالى لكل صاحب قلب متكبر جبار هو من باب العقوبة لهذا المتكبر الجبار الذي يعاند الحق، ويحاربه ويواجه الحق بالإنكار، وهو يعلم في داخل حقيقة قلبه أنه الحق، ولكن الكبر والتجبر على الحق يدفعانه للإنكار.

ثم لما علم فرعون بقوة الحجج التي أصبح يواجها وأعوانه اتجه إلى المحاربة عن طريق إشغال عقول الناس عنها بالكذب والوهم، بما يثبت على نفسه أنه مستكبر جبار ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ فيوجه فرعون وزيره هامان ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ وهو المبنى المبالغ في علوه وارتفاعه، فهو شاهق في ارتفاعه وعلوه عن سطح الأرض، ثم يذكر الهدف من بناء هذا الصرح ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ لعلي أرى الطرق والأبواب الخاصة بالسموات، فأرى إله موسى من فوق هذا الصرح. وهذا يدل على ثلاثة أمور: الأول: جسارة قلبه واستوائه على الكفر، وامتلاء قلبه بالاستعلاء والتعاظم. والأمر الثاني: إشغال عقول الناس عن دعوة موسى عليه السلام بذلك الصرح المزعوم، وما سيأخذه من الوقت والزمن الذي يُلهي به عقول الناس، حتى يفكر في تدبير أمر آخر. والأمر الثالث: ضعف رؤيته وتفكيره ومن معه على ما عَلِق في ذهنه وتفكيره، بأنه يستطيع بلوغ ارتفاع السماء وعلوها الذي قال الله تعالى عنه في سورة السجدة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ وقال تعالى في سورة المعارج ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/٣٤) برقم (٥٢)

خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ ﴾ وقد ورد البيان بأسلوب التقليل ﴿ لَّعَلِّيٓ ﴾ الذي يفيد استبعاد ما قاله موسى من أنه رسول من الله سبحانه وتعالى. لإفادة التقليل من أنه احتمال غير متوقع بأن هناك إله كما يزعم موسى، ولكن حتى أبين لكم كَذِب موسى عليه الصلاة والسلام.

ثم للمبالغة في اشغال الناس بكذبه أنه ذكر الهدف والغاية ﴿ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾ من أجل الوصول إلى ﴿ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي: الطرق والأبواب الخاصة بالسموات، وهو ما قاله بعض أهل التفسير فيما أورده ابن جرير الطبري، وابن كثير رحمهم الله جميعاً، قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السماوات. وقيل طرق السماوات[١] فيظن فرعون أنه بهذا الاشغال للناس عن موسى علي السلام قد دبر شأن موسى عليه السلام، وبما يظن ويأمل من الآمال الفاسدة والمتلاشية أنه قد حقق مراده، وما يعلم بأن سلطان الله تعالى وقهره أعظم مما هو فيه وعليه هذا الطاغية الجبار، وأن الله تعالى جاعل كيد فرعون في تباب، وأنه ناصر رسوله ونبيه موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ومن معهم من المؤمنين.

ثم يبين فرعون هدفه من هذا البناء، بأنه سيصل إلى مراده، وهو ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ فأرى هل هناك إله لموسى في السماء؟ مما يفيد الجرأة على الله سبحانه وتعالى. وبما يفيد أتحقق لكم بما يثبت أنه كاذب فيما يدعيه ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا ﴾ وإني أعتقد قطعاً وجزماً أنه يكذب فيما يدعيه، بما يفيد أن موسى يفتري علينا بأن هناك إله غيري، وأنا لا أعلم أن هناك إله لكم غير فرعون كما يَدَّعي ويتجرأ. فهو من باب التحقير والاستهزاء والسخرية. فاستخف عقول الكبراء، فكيف بمن هم دونهم؟ فقبلوا هذا الاستخفاف بعقولهم، واستسلموا له. مما يفيد أن الإنسان إذا قَبِل أدنى الكذب، ولم يُحَكِّم عقله، فإنه يقبل بما هو أدنى وأحقر، ثم يتمادى في تصديق البهتان، حتى يستسلم لكل بهتان، ويُصَدِّق كل افتراء. وهذا ما يحصل عند الجهلة، والمنحرفين في عقائدهم، من أهل البدع والشبهات والشهوات.

فباستحسانه لِمَا هو عليه من الباطل جعل فرعون يستعلي هو وجنوده في أرض مصر على عباد الله تعالى، وعلى الحق، وعلى ما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام. كما يدل هذا على تخوف فرعون من موسى، وأنه موقن بأنه صادق، مما جعله يبذل كل نفيس لديه لإبعاد الناس عن تصديقه عليه الصلاة والسلام. واستخدم لذلك إشغال الذهن والعقول للناس، بانتظار ما سيكون مما وعدهم به من الصرح المزعوم. كما يدل ذلك على أنه استعبد وجَهَّل الناس، حتى أصبحوا في استسلام وانقياد لعقله وأهوائه، وأكاذيبه. وهذا الشأن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٣٢٤-٣٢٦) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٨٦)

والأمر من فرعون يُعَلِّم الناس أن من واجبهم اليقظة، وأن المستكبر والجبار يصنع كل ما يحلو له في محاربة الحق، ولا يبالي بالعواقب، مما يجب الحذر من كل جبار مستكبر.

وبهذا القول وبغيره من الأقوال والادعاء من فرعون ما جعله يتمادى حتى أصابه الإعجاب والغرور بأقواله وأعماله ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ وكذلك زُيِّن لفرعون سوء ما يعمل من الأعمال الباطلة، والجرأة على ربه تبارك وتعالى، والافتراء على رسول الله موسى عليه السلام. وقد أفادت دلالة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: بمثل ذلك ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ﴾ فورد التزيين هنا بتغييب الفاعل، فلم يُذكر مَن زَيَّن لفرعون سوء عمله، ليستوعب ويشمل جميع العوامل التي أدت به إلى ذلك. فاستخفافه بغيره سبب، ومجاملة ومطاوعة الناس له سبب ثاني، وتزيين أعوانه والمستفيد منه عامل ثالث كذلك، والشيطان عامل رابع كذلك، وغروره عامل خامس، وكذلك استكباره وتجبره عامل سادس، وغير ذلك من العوامل التي بعثت فيه استحسانه زينة ما يقوم به. مما يفيد أن على العاقل أن يتنبه لما يزينه الباطل، وما يتلبس به من زينة الغرور، وبأن لا ينخدع بزينة الشيطان وأعوانه، وليدرك أن المستفيدين الذين هم في دائرته وحوله قد يزينون له سوء عمله، من أجل استغلاله وحفظ مكانتهم، طالما أنهم مستفيدون من تزيينهم له سوء عمله، وتحصيلهم مبتغاهم من حطام الدنيا الفاني، حتى إذا ذهب وولى سلقوه بألسنة حداد.

وبالتالي تحقق في فرعون الإعراض عن الحق ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فَمُنِع عن سبيل الله تعالى، فقد صده ومنعه تزيين عمله السيء عن أن يسلك طريق الحق والخير والنجاة، وبالتالي أصبح كيد فرعون في تلاشي ودمار وهلاك ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ فما مصير كيد فرعون الذي يكيد به لموسى عليه السلام، ولدين الله تعالى إلا هباء منثورا، من قوة التلاشي والانعدام.

وقد ورد البيان بأسلوب الحصر، فحصر كيد فرعون بحرف ﴿وَمَا﴾ وأداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ التي حصرت كيد فرعون بأنه لا يخرج عن كونه ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي في هلاك ودمار وخسارة، فلا ثبات ولا امتداد له أبداً، بل حصره الله تعالى في الهلاك. وقد تحقق فيه ما بينه الله تعالى من الهلاك، فلم ينفعه ما كان فيه من القوة، والاستكبار والتجبر. ليكون آية لغيره. كما يفيد ذلك: أنه لا كبير على الله تعالى، فجميع ما في الكون تحت قهره وسلطانه وإرادته عَزَّ وجل، وأنه لا يخرج شيء عن ذلك، فعلى الإنسان أن يستسلم لربه، ويرضخ له، ويتوب إليه، ويستكين ويستضعف لربه جَلَّ جلاله، فهو الذي يُعطي، وهو الذي يمنع، وهو الذي يعاقب. فلا حول ولا قوة لأحد من خلقه إلا به عَزَّ في علاه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ﴾

ويستمر الرجل المؤمن الصالح الذي يكتم إيمانه في وعظ قومه، فيرشدهم إلى متابعته فيما يقوله لهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ فقال الذي آمن، ويكتم إيمانه ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فيناديهم بقوة الانتماء لهم ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ والذي يعني شدة حرصه على مصلحتهم. لإفادة طلب الإقبال على ما يقوله لهم، وإظهار مكانتهم منه، وحرصه عليهم ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ أي: أطيعوا باتباع ما أبينه وأقوله لكم، فإنني ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فإنني أهديكم سبيل الهدى والحق، المضاد لسبيل الضلال، فإنني أهديكم وأرشدكم إلى الذي يوصلكم إلى ما تَرْشِدُون به، من الفوز والفلاح، وهو الإرشاد إلى الحق، وإلى الجنة، الذي يتحقق بطاعة الله تعالى. ومن دقائق البيان هو إفراد كلمة ﴿سَبِيلَ﴾ لأن سبيل الله تعالى واحد، فدينه وشرعه واحد. وورد ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ عاماً، ليستوعب جميع أنواعه ومفرداته وأزمانه، سواء في الدنيا، أو عند الموت أو بعد الموت، أو في القبر، أو في الآخرة بدخول الجنة.

ثم تدرج معهم إلى وصف الحياة الدنيا مقارنة بالآخرة ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ فبدأهم بأقوى علاقة اجتماعية تربطه معهم ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ واتخذ هذا النداء مسلكاً ومبدأً في كل نصح لهم، فيقول لهم ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ والتي اشتملت على النداء، وعلى بيان درجة التصاقه بهم، بأنه جزء منهم، وذلك بهدف إيضاح أهمية أمرهم وشأنهم بالنسبة إليه، وأنه يحب لهم ما يحبه

لنفسه، ثم يشرع في المقارنة بين الحياة الدنيا والآخرة من حيث الزمن واللذة ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ فالحياة الدنيا متصفة بأنها متاع، يتمتع بها زمناً محدداً ثم تنقطع. وهو شأن معروف عند كل أحد من الناس بما يشاهدونه من الرحيل عنها بالموت، فلا يبق له شيء من متاعها معه ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ بينما الآخرة متصفة بالحياة الدائمة المستقر ﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ التي لا تنقطع، فلا زوال لها أبداً. لأن القرار يفيد: الاستقرار والدوام، كما أن الدار تعني مكان المكوث، ووصف هذا المكان بالقرار الذي يفيد المسكن الذي لا يزول. وفي هذا الأسلوب المقارن ما يستدعي النفوس للتفكير، والتأمل، وإدراك الحقيقة فيما يشاهدون من رحيل غيرهم بالموت، مع ترك جميع ما كانوا به يتمتعون.

ومن جميل البيان أن ورد وصف الحياة الدنيا بأسلوب القصر والحصر، فقصر الحياة الدنيا بأداة القصر ﴿إِنَّمَا ﴾ وحصرها فقط في المتاع ﴿مَتَٰعٌ ﴾ فليست غير ذلك، فلا وصف لها متحقق فيها إلا أنها متاع مؤقت ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ والمتاع هو: ما ينتفع به الإنسان، ثم ينتهي وينقضي، من طعام أو ممتلكات، ونحو ذلك، بما يدل على حقارة الدنيا، وصغرها في رحاب الآخرة. وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعل أحدكم إصبعه هذه، وأشار يَحْيَ: بالسبابة في اليم، فلينظر بما يرجع)[1] بينما ورد وصف الآخرة بنون التوكيد ﴿وَإِنَّ ﴾ التي تؤكد حقيقة ما بعدها من الوصف والبيان بأنها ﴿هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ الذي يفيد الدوام والثبات من غير زوال. بل عَيَّنَها بصيغة القصر، بأنه لا غيرها داراً للقرار. فدار الاستقرار محصور في الآخرة فقط. ليفيد التحذير من التهالك على الدنيا وهي زائلة، وترك الآخرة وهي الباقية. فيرشدهم إلى إزالة الحسبان الخاطئ، والفكر الضال، الذي يتهاوى على الشهوات الزائلة، وترك النعيم المقيم. اللهم اجعلنا ممن يؤثرون الآخرة على الدنيا، وأن تجعلنا من الفائزين بالجنة في الآخرة، وجميع المسلمين يا رب العالمين.

ثم يذكر لهم الجزاء المقابل لكل من عمل من خير أو شر ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ من عمل سيئة من السيئات فجزاؤه بمثل ما عمل، سواء كانت صغيرة أو كبيرة ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ لإفادة المماثلة في الجزاء السيء للعمل السيء، الذي يتحقق به كمال

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢١٩٣/٤) برقم (٢٨٥٨)

العدل من ربنا سبحانه وتعالى. وقد أفاد حرف ﴿ مَنْ ﴾ الشرط، بما يفيد أن من لم يعمل سيئة، فلا يناله عقاب. كما أفاد حرف ﴿ مَنْ ﴾ التبعيض ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ سواء كانت قليله أو كثيره، وبالتالي تضمن نوع السيئة، سواء كانت من الشرك أو ما هو دونه، لتستوفي دلالة السيئة جميع السيئات من الشرك وعموم المعاصي، فليس هناك ما يخصصها بنوع محدد من المعاصي. ثم ذكر المماثلة في الجزاء ﴿ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أي: المعادلة والموافقة في الجزاء السيء، بمعنى أن العقوبة في الآخرة بنفس القدر والمقدار الذي يستوفي السيئة.

وفي المقابل للعقاب وجزاء السيئات فإن هناك الثواب لمن عمل الحسنات ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ وأما من عمل شيئاً من الصالحات، من غير تحديد لنوعه أو كثرته أو قلته، وسواء كان من الرجال، أو الإناث، وبشرط الإيمان ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي: يكون هذا العمل الصالح مع تحقيق الإيمان. مما يفيد أن العمل الصالح من غير الإيمان لا قيمة ولا أثر له ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فهؤلاء يدخلون الجنة في الآخرة، ثم يصف حال أهل الجنة ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فينالهم الرزق من غير تحديد بحد محدد، بما يفيد أنه يُفاض عليهم الرزق فيضاً من غير تقتير، أي بغير محاسبة وتقدير بقدر معين. بما يفيد تعظيم سعة العطاء، فلا يستطيع أحد أن يحسب ما يجده المؤمن من الثواب مهما بلغ من القدرة على الاستقصاء والحساب، بما يفيد أنه لا يُكال لهم بمكيال يقابل ما كان منهم، ولا يوزن لهم بميزان يقابل ما كان من أعمالهم الصالحة، بل هو فيض لا حدود له من العطاء. فلا يستطيع أحد أن يقدره بقدر محدد ومعين. وبما يفيد المبالغة في الجزاء إلى حد لا يخطر ببال المؤمن.

ويتكرر النداء لقومه بالمزيد من البيان في النصح، وبأسلوب الاستفهام المقارن الذي يحمل التحذير لهم مما سيؤدي بهم كفرهم ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ يا قومي أخبروني عن حالي معكم وحالكم معي، بالتأمل والتدبر ؟ فأنا أدعوكم إلى ما يحقق لكم النجاة من عذاب الله تعال، فتدخلون الجنة، بينما أنتم تدعونني ليتحقق بي عذاب الله تعالى بالنار، والحرمان من دخول الجنة، فدعوتي لكم نجاة، ودعوتكم لي هلاك. بما يفيد أنه يدعوهم إلى التأمل في المفارقة بين دعوته لهم ودعوتهم له. وفي هذا تنبيه لهم للمزيد من التأمل والتفكر فيما أدعوكم إليه، فإنني أدعوكم للإيمان بالله تعالى، والإيمان بموسى عليه السلام رسولاً، وأن في اتباعه النجاة لكم في الدنيا والآخرة، وأن في مخالفته دخول النار الدائم الشديد الذي لا ينقطع.

ثم يمتد بيانه إلى تحليل سبب الدخول إلى النار فيما يدعونه إليه ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ فيكشف لهم حقيقة دعوتهم، بأن محورها وأساسها يقود إلى الهلاك، لأنه مخالف ومضاد لدعوة المرسلين جميعاً ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ ﴾ فدعوتكم التي يتحقق بها دخول النار، لأنها قائمة على الكفر بالله تعالى ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ ﴾ فتريدون مني أن أشرك بالله تعالى ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ فأنتم تطلبون مني أن أعبد مع الله تعالى معبوداً لا أعلم أنه شريك لله تعالى، بما يفيد أن علمي اليقيني هو: أن الله تعالى لا شريك له، فكيف أشرك به غيره؟ وأنا أعلم أنه واحد أحد، لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

في حين أنني أدعوكم إلى عبادة الذي اتصف بصفات العزة والقهر والغلبة، وصفة المغفرة لمن تاب من عباده ﴿ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ فالذي أدعوكم اليه متصف بالعزة ﴿ٱلۡعَزِيزِ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يعبد غير العزيز فقد عبد الذليل المهزوم والمقهور من العزيز سبحانه وتعالى، الذي له كمال العزة. والصفة الثانية لربكم الذي أدعوكم لعبادته دون غيره أنه ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ الذي يمحو الذنوب عن المذنبين، بإزالتها وسترها. فهو الذي يمحو جميع الذنوب لمن تاب وأناب إليه سبحانه وتعالى. فيمحو كل قول وفعل يستوجب العقاب لمخالفته شريعته تبارك وتعالى. وكذلك فإن ربكم يقبل التوبة، فيقبل رجوع من رجع إليه من عباده بالتوبة عما تاب منه من المعاصي. بما يفيد أن الله سبحانه وتعالى من رحمته يغفر جميع ذنوب عباده، ويقبل توبتهم بكرم وفضل منه سبحانه وتعالى. وفي هذا عظيم الترغيب لهم بأن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه، وأن لا يجعلوا من ذنوبهم مهما بلغت السبب في عدم رجوعهم للحق، والامتثال لطاعة ربهم ودخولهم في دين الله تعالى. فلا يأس ولا قنوط لكم يا قومي إذا تبتم وعدتم إلى رشدكم، بالامتثال لشرعه الكريم. وأما حال أنكم استكبرتم عن طاعته فإن ربكم هو ﴿ٱلۡعَزِيزِ ﴾ الذي يقهر ويذل من تعزز عليه وامتنع عن طاعته تبارك وتعالى.

وقد أفادت بُنية كلمتي ﴿ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في عزته ومغفرته. فله العزة المطلقة، وكذلك فهو ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ فله المغفرة المطلقة، مهما بلغت ذنوب التائب لربه عَزَّ وجل. فدلالة بُنية ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ تفيد كمال المغفرة بالتجاوز عن ذنوب التائب لربه تبارك وتعالى. بما يفيد لا تمنعكم ذنوبكم عن الإقبال على ربكم بالتوبة والطاعة والامتثال لما يدعوكم إليه رسوله موسى عليه الصلاة والسلام.

ثم بعد أن بين لهم حقيقة ما يدعوهم إليه من الإيمان، ينتقل بهم إلى شرح ما يدعونه إليه، ليبين ويوضح بطلانه ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ فلا شك في أن الذي تدعونني إليه ليس له استجابة تتحقق في الدنيا ولا في الآخرة، وبالتالي ليس لهذا الشريك الذي تدعونني إليه ما يُوجب عبادته والتوجه إليه. فبدأهم بنفي الشك ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ فحقاً بلا شك، ثم سلط هذا النفي على علة بطلان ما يطلبونه منه ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ ما تطلبونه مني من الشرك، فإنه ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ليس له استجابة نافعة تتحقق في الدنيا ولا في الآخرة، وبالتالي ليس للشريك الذي تدعونني إليه ما يُوجب عبادته والتوجه إليه، وهو بهذه الصفة من العجز، وعدم القدرة على الاستجابة لكم بشيء مما تطلبونه في الدنيا ولا في الآخرة. ثم أرجَعَ شأن الجميع إلى الله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فإن مرجع الجميع إلى الله تعالى، وبالتالي لا حاجة لنا جميعاً فيمن ليس له دعوة ولا مكانة ولا شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة طالما أن مرجع الجميع هو إلى الله سبحانه وتعالى. مما يُوجِب ويدعو إلى التأمل في حال الشرك، وعجز من يجعلونه شريكاً لله سبحانه وتعالى وهو عاجز تمام العجز.

ثم يبين لهم نتيجة الكفر ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ فإن المسرف الذي بالغ في محاربة الحق وإنكاره مع قوة وضوحه وبيانه، فإن مآله إلى النار يوم القيامة. مما يفيد التحذير من التمادي في إنكار الحق والتمادي إلى درجة الإسراف في صد الآيات والحجج الواضحة، واختلاق الشك، فتموتون بسبب ذلك التمادي كفاراً على ما أنتم عليه، فتدخلون النار. بما يفيد أن معصيتكم بإنكار موسى عليه السلام، وما معه من الحجج والبراهين قد تجاوزتم فيها إلى حد الإسراف بالمبالغة في الإنكار والتكذيب والتحزب ضده، وإرادة قتله، واختلاقكم الشك والريبة من غير وجود لها أصلاً. فهي موعظة بالشواهد المتدرجة.

ثم ينتقل بهم بأسلوب المفارقة إلى ختام الكلام والموعظة والنصح لهم ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ فما أقوله لكم الآن ستذكرون نتائجه ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾ سيتبين لكم ما يجعلكم تتذكرون ﴿ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ فستذكرون هذا الكلام والنصح مني لكم، ويعني به حين يحل بكم العذاب في الدنيا والآخرة. ثم ينتقل بهم إلى أن هذا هو شأني معكم، ولا أستطيع غير ما بينته وأوضحته لكم ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فإني أعتمد وأكل شأني كله، ومرادي لكم من الخير إلى الله سبحانه وتعالى، ليقضي بما يشاء، فإنني متوكل على الله سبحانه وتعالى. ثم ينتقل بهم إلى

بيان علم الله تعالى وكمال قدرته بشأن العباد جميعاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فإن الله تبارك وتعالى عالم بأمور عباده، وبما هم عليه، وبما يستحقونه من الجزاء، وما ينون به من الخير أو الشر، بما يفيد التحذير لهم من أن يقصدوا الشر به، أو بموسى عليه السلام، فإن الله تعالى بصير بالجميع، فلا يخفى عليه شيء من أمر العباد وشأنهم.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى عن عنايته بذلك الرجل المؤمن، وإحاطته برعايته وحفظه مما مكر قوم فرعون به. فقال عَزَّ وجل ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ فمنع الله تعالى عن الرجل المؤمن ما أراد به قومه من الشر ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ فتولى الله تعالى وقايته بتدبيره سبحانه وتعالى، فأظهر الله تعالى إكرامه بأن تولى أمره مباشرة، فوقاه بأن جعله في حرز ومنعة، فلا يدركه مكرهم ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ فمنعه الله تعالى بقدرته عَزَّ وجل من مكرهم، وهي الخديعة التي لا يشعر بها المخدوع ولا يظنها. ودلت دلالة ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ على الجمع والكثرة من السوء المتنوع الذي قصدوه به. فإنها أنواعاً من السوء الذي أرادوه به، وأن ذلك السوء كان بطريقة المكر والخديعة ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ وهي الخديعة التي لا يشعر بها المخدوع ولا يظنها، وذلك بإظهار خلاف ما يريدون أن يُوقِعُوه فيه وبه. ولأن الله تعالى بصير بالعباد، وبما يكون منهم قبل أن يكون فقد جعله الله عَزَّ وجل في حرزه وحفظه ووقايته من ذلك المكر، بأن جنبه، وجعله في حصانة من مكرهم.

ثم يخبر الله تعالى بعقابه لأهل المكر ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ فأحاط الله سبحانه وتعالى بآل فرعون، أسوأ العذاب، وأنكله بأن أغرق فرعون وأعوانه في البحر، وهم ينظرون بأعينهم هلاك أنفسهم، وتجرعهم الموت وهم يبصرون، ويعيشون عذاب الغرق. ومن دقائق البيان أن السياق لم يذكر هنا فرعون وإنما ذكر آل فرعون، واستغنى بانتسابهم إليه عن ذكره، باعتباره كبيرهم، فيكون هو أولهم، لأنه الأولى بالعذاب، بل لقوة تأثيره نُسِب قومه إليه، فهو الأولى بالعذاب.

مما يبين أن الله تعالى بالمرصاد للماكرين بدينه وبالمؤمنين، وأن عاقبة المكر هو الخسران الواضح المبين، وأن الفوز للدين والإيمان. كما يبين هذا أن من توكل على الله تعالى من المؤمنين كفاه، حيث قال هذا الرجل المؤمن كما في الآية السابقة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ التي أفادت توكله واعتماده على ربه سبحانه وتعالى. كما يبين هذا الأمر أنه لا أمان لأهل الكفر، ووجوب الوقاية منهم. وأن الذي امتلأ قلبه بالكبر وتمادى فيه فقد

لا ينتفع بالتذكير، كما يفيد أن مهمة الداعي إلى الخير هو بذل الجهد في التذكير، ولا يلزمه تحقيق النتائج كما يريد ويتوقع ويأمل.

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

ثم يتناول البيان وصف عذاب الله تعالى لفرعون وآل فرعون، فيقول عزَّ وجل ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ فإنهم يُعرضون على النار صباحاً ومساء. ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ فالغدو هو الصباح، والعشي هو المساء، والعرض يفيد الرؤية التي تبعث في النفوس الوجل والخوف، فيحدث لهم بذلك الشديد من العذاب النفسي. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده غدوة وعشيا، إما النار، وإما الجنة. فيقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه)[١] وأما يوم القيامة، فيقول تبارك وتعالى عن آل فرعون ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ ويوم القيامة يدخلون جميعاً النار بأرواحهم وأجسادهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فإن أرواحهم تُعرض على النار صباحاً ومساء إلى قيام الساعة. فإذا كان يوم القيامة، اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار[٢] وسماه سبحانه وتعالى ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ ليتناسب مع شدة كفرهم، فالجزاء من جنس العمل. فالله تعالى لا يظلم أحداً من عباده أبداً. بل يجازي العبد بما يستحق. ويعفو عمن تاب وأصلح وأطاع ربه تبارك وتعالى، مهما كانت ذنوبه.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤/١٩٤) برقم (٦٥١٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٨٧-٨٨)

ثم يُخبر الله سبحانه وتعالى بما يدور بين التابعين والمتبوعين من الجدال وهم في النار يصطلون، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ إنا كنا في الدنيا أتباعاً لكم في الباطل. فهل يمكن لكم أن تتحملوا عنا شيئاً وقسطاً من عذابنا، لقاء ما كان مِنَّا لكم في الدنيا. فيعظ الله تعالى العباد بما يكون من التحاج بين أهل الباطل، من التابعين والمتبوعين ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾ مما يبين أنه تحصل بين أهل النار من العتاب والتظالم فيما بينهم ﴿ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ﴾ وهم الذين تابعوا القادة في الكفر ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ ﴾ الذين هم القادة، المتصفون بالاستكبار على الحق ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ إنا كنا في الدنيا أتباعاً لكم في الباطل، أي: نتابعكم. بما يفيد كنا نجاملكم، ونُكَثِّر سوادكم، ونرفع من شأنكم ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ فهل يمكن لكم أن تتحملوا عنا شيئاً وقسطاً من عذابنا، لقاء ما كان مِنَّا لكم في الدنيا؟ فهو سؤال طلب إن أمكنهم شيء من ذلك. مما يبين ويكشف انتفاء العلاقة، وانتفاء تبادل المصالح في الآخرة بين أهل النار. وبما يفيد الحذر، من متابعة أهل الباطل، فلن يغنوا شيئا عمن تابعهم في الفساد.

فيرد عليهم الكبراء من أهل الاستكبار ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ فإننا جميعاً في جهنم، نحن وأنتم، فقد حكم الله تعالى علينا بما نحن فيه، بما يفيد لا أحد منا يستطيع أن يتحمل عن غيره شيئاً من العذاب، وبما يفيد أنه قد استوينا نحن وأنتم في العذاب الذي قد حكم الله تعالى به علينا جميعاً. ثم يتوجه السياق إلى بيان مطلب أهل النار من خزنة جهنم من الملائكة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ فيقول أهل النار للملائكة الذين هم خزنة جهنم ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ اطلبوا من الله تعالى، واشفعوا لنا بأن يخفف عنا ولو يوماً واحداً من عذاب النار. فلم يطلبوا الخروج من النار ليوم واحد، ليأسهم من ذلك، بل طلبوا التخفيف فقط ليوم واحد، وذلك لشدته وقوته عليهم. فترد عليهم الملائكة من خزنة جهنم قائلين لهم ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ فوجهت الملائكة من خزنة جهنم لهم السؤال الذي يبين خطأهم، وما كان منهم في الدنيا، لإفادة التوبيخ والتقريع لهم على ما كان منهم من الكفر ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم

بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أولم تأتيكم الرسل من ربكم بالحجج والبراهين التي تثبت لكم أنهم رُسُل الله تعالى، وأنه يجب عليكم طاعة الله تعالى، وأن من يعصيه عقابه جهنم وبئس المصير، وأن من يطيعه له عظيم الثواب، وهو دخولهم الجنة ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ أي: نعم جاءت الرسل بالبينات الواضحات، فاعترفوا بالحق، واعترفوا أنهم كذبوا أنبياءهم. فأجابتهم الملائكة قائلين ﴿ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ فإذا كان الأمر كذلك فادعوا، واستمروا في دعائكم وطلبكم ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ فإن دعاء الكفرين ومطالبهم في متاهة من الضياع، والخسران والتبار الذي لا فائدة تُرجَى لهم.

وبهذا فقد أوضح وبين تبارك وتعالى الحال التي سيكون عليها أهل الكفر في الآخرة من العذاب الذي لا ينقطع أبداً، ولا مجال لانقطاعه، أو تخفيفه أبداً. بما يفيد التحذير لأهل الدنيا مما هو قادم لمن كفر بالله سبحانه وتعالى. فيجب الحذر من ذلك اليوم الذي أوضحه الله تبارك وتعالى أكمل توضيح، وكأن المخاطَب يعاينه ويشاهده. وهذا من لطف الله تعالى ورحمته أن بين للعباد حقائق الآخرة، وكل إنسان يتحمل ما يكون منه، ولا يلوماً إلا نفسه.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يخبر الله سبحانه وتعالى عن نصره في الدنيا والآخرة لفئتين فقط ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ فإن نصرنا متحقق للمرسلين الذي أرسلناهم للعباد، وكذلك للذين آمنوا بالمرسلين، فأطاعوا ربهم وسلكوا هدي الصراط المستقيم. وهذا النصر كائن ومتحقق لهم في الدنيا على من عاداهم ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ وكذلك ﴿ وَيَوۡمَ يَقُومُ

ﱡﭐ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﱠ وهو يوم القيامة، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين على الأمم المكذبة رُسُلَها[1] ففي ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، يجازي سبحانه وتعالى المرسلين والمؤمنين بأعمالهم، فيدخلهم الجنة، ويكرمهم بفضله ومَنِّهِ، ويجازي الكافرين بأعمالهم التي تقذف بهم في النار وبئس المصير.

ثم يصف سبحانه وتعالى حال الكافرين في هذا اليوم، فقال عزَّ وجل ﱡﭐ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﱠ فيوم القيامة لا ينتفع الظالمين باعترافهم بكفرهم وما كان منهم في الدنيا. فإن لهم من الله تعالى الطرد والإبعاد عن رحمته ﱡﭐ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ ﱠ أي: الطرد والإبعاد عن رحمته سبحانه وتعالى. وأيضاً ﱡﭐ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﱠ أي: لهم أسوء المنازل التي ينزلونها، وهي النار. وتعني الدار: مكان المكوث، وقد وُصِفَ هذا المكان بسوء الدار الذي يفيد أسوء مسكن يؤولون إليه، ولا يبرحون عنه. فلهم سوء العاقبة والمآل، فمأواهم النار التي هي دارهم وقرارهم، وبئس المصير.

ثم يخبر الله تعالى بأن من جملة نصره لرسله ولعباد المؤمنين، هو نصره سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام على فرعون الذي أهلكه بالغرق، فقال تعالى ﱡﭐ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﱠ لقد أعطينا موسى الهدى الذي هو التوراة والنبوة، والتوفيق له ولمن اتبعه بالإيمان والتصديق.

وقد بدأ البيان الكريم بلام القسم في مقدمة حرف التأكيد ﱡﭐ وَلَقَدۡ ﱠ لتأكيد تحقق ما أخبر به سبحانه وتعالى، وفي هذا قوة في إظهار نصره سبحانه وتعالى وتوفيقه لرسله وللمؤمنين. فجعل لهم العاقبة، فأورثهم بلاد مصر، وأموال فرعون وغيره من الذين أغرقهم الله تعالى في البحر، جزاء صبرهم على طاعة الله تعالى، واتباعهم رسولهم موسى عليه الصلاة والسلام. وقد استوعب قوله تعالى ﱡﭐ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ ﱠ جميع ما يهتدي به المهتدي، وعلى رأسها النبوة والتوراة، وجميع ما أوحى الله تعالى به لموسى عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك الأمر بالدعوى، والحجج والبراهين، والتأييد، والتوفيق والتسديد.

ثم يخبر سبحانه بما امتن به على بني إسرائيل من إبقاء التوراة من بعد موسى عليه السلام، فقال عزَّ وجل ﱡﭐ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﱠ أي: وأبقينا الكتاب الذي هو التوراة في بني إسرائيل من

---

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٣٤٦)

بعد موت موسى عليه السلام، فكانوا هم الوارثين للكتاب الذي هو التوراة. وهذه مِنَّة من الله تعالى على بني إسرائيل. مما يبين عظيم فضل الله تعالى عليهم. ولكن بني إسرائيل بدلوا في الكتاب بعد ذلك.

ثم يخبر الله تعالى بما في كتاب موسى عليه السلام من الخير العظيم، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فإن كتاب موسى الذي هو التوراة ﴿ هُدًى ﴾ هداية لمن اتبعه، وكذلك ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ أي: يذكرهم بالحق، والطريق المستقيم الذي يوصلهم لطاعة ربهم. وخص سبحانه وتعالى أولي العقول السليمة بالانتفاع منه ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فأولي الألباب الذين هم أهل العقول السليمة الصحيحة، التي تقبل الحق فتنتفع به، وأما المتعالين من أهل الاستكبار الذين هم ليسوا من أولي الألباب فلن ينتفعوا بالكتاب. مما يفيد أن الذين ينتفعون بالحق هم الذين يقبلونه، وهم أصحاب العقول الصحيحة، وأن من رفض الحق فليس بصاحب عقل لبيب، لأنه يرى الحق ويعرض عنه مطاوعة لشهواته، واستكباراً منه بنفسه على الحق. مما يفيد أهمية التواضع، وأنه القوة التي تدفع الإنسان لاتباع الحق.

ثم يتوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بالإرشاد والتوجيه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ عليك بلزوم الصبر على ما أنت فيه، وما تواجه من أعدائك، الذين يرفضون الحق، ويتهمونك بما لا يليق بك وبمقامك ومنزلتك، فاصبر عليهم كما صبر المرسلون من قبلك على أقوامهم. ثم يبين تبارك وتعالى علة وسبب الصبر ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ فإن ما وعدك الله تعالى به حق لا شك ولا ريب فيه، وسيتحقق لك النصر المبين، وينتشر هذا الدين، وينهزم الأعداء، بما يفيد أهمية الثقة بالله تعالى وعدم الاستعجال. وإذا كان الله تعالى يوجه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر والثقة فيما وعد الله تعالى به، فإن المؤمن في أمس الحاجة للصبر، ولا يستعجل ما وعد الله تعالى به، سواء في دعاء الطلب، أو دعاء دفع الضر. فالصبر قاعدة سلوكية مهمة، ويجب على المؤمن العمل بها.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ وبناء على هذا التوجيه الكريم من رب العالمين فقد امتثل عليه الصلاة والسلام بذلك، فكان كثير الاستغفار. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه

في اليوم أكثر من سبعين مرة)[١] فإذا كان الله تعالى قد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار وهو نبيه ورسوله، والمسدد من ربه، والمغفور له، فإنه يتأكد بذلك أهمية الاستغفار للأمة، ووجوب ملازمته، فقد ورد الاستغفار بصيغة الأمر ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الذي يفيد الوجوب. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا تهييج للأمة على الاستغفار[٢] لأن في الاستغفار زيادة الدرجات ورفعتها.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالتسبيح، وخاصة في وقت المساء والصباح، فقال تعالى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ فسبح ربك واحمده، ونزهه عما لا يليق به. ومن ذلك قول: سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر. وسبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم. أي: واذكر ربك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بكثرة التسبيح خاصة في هذين الوقتين. واصل التسبيح: التنزيه والتقديس، والتبعيد بالتطهير من النقائص ومما لا يجوز في حق عظمته وجلال سلطانه عَزَّ وجل، فهو تقديس وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، من إضافة ما ليس له في اسمائه أو صفاته، أو من ذاته، أو أفعاله، أو إرادته. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: التسبيح في كلام العرب، التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم[٣] فالتسبيح هو التنزيه من النقائص والعيوب، فهو تنزيه الله جَلَّ جلاله من كل سوء، وهو تنزيه تعظيم. فسبحانه وتعالى منزه ومُقدَّس ومطهر في ذاته واسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يُقاس على أحد من خلقه عَزَّ وجل. فتقديسه وتنزيهه يكون بوصفه الذي يناسب ألوهيته وربوبيته، وكمال ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. فَيُنَزَّه من الشريك والولد والمثيل والشبيه وغير ذلك مما لا يليق به عَزَّ في علاه.

ويغلب على مكان انطلاق التسبيح أنه من القلب، أي: أن مبعثه من القلب، بما يعتقد العبد من كمال التقديس لربه تبارك وتعالى، ويُصدقه العمل، بالبعد عن الشرك والرياء، ونحوه، إضافة إل ما يلهج به اللسان من المحامد. وكذلك منطلق الذكر هو القلب، ويجتمع معه الفعل كالصلاة، لأنها ذكر، لِمَا فيها من التسبيح والتكبير، وتجريد أدائها من الشرك والرياء، وإخلاصها لله تعالى. فيستحوذ الذكر على القلب، بانشغاله بما هو فيه، لأن ذكر الله تعالى يكون ذكراً إذا صَدَّقَه القلب. والذكر يأتي بمعنى عموم العبادة.

وتخصيص الذكر في هذين الوقتين ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ ما يدل على منزلتهما وأهميتهما. ومعنى ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ الذي هو ما بعد الزوال، آخر النهار حتى التقاء أول الليل، وأما

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٥٤/٤) برقم (٦٣٠٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩١/٤)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٦٣/١)

معنى ﴿ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ فهو أول وقت الصباح، من طلوع الفجر، ويشمل وقت طلوع الشمس، وظهور ضوئها، وكذلك يشمل الضحى الذي يمثل وضوح ضوء الشمس على الأرض. مما يدل على فضل الذكر في هذين الوقتين. كما يشمل البيان إظهار المبالغة من كثرة الذكر، ومن حيث طول الوقت والزمن. مما يلزم المسلم العناية بالتسبيح وخاصة في هذين الوقتين.

وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بما يتجند به صلى الله عليه وسلم من الصبر والاستغفار والتسبيح يُظهر الله تعالى أسباب بغض هؤلاء لرسوله صلى الله عليه وسلم بأدق وأجزل البيان، وبما يكشف أن السبب ليس في دين الله تعالى، وليس في الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا في منهج دعوته، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ إن هؤلاء الذين يدفعون الحق بالباطل عن طريق الجدال، ويصدون ويردون الحجج والبراهين الصحيحة ﴿ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ من غير برهان من الله سبحانه وتعالى، بما يفيد أنه اختراع وافتراء من عند أنفسهم، إنما هو بسبب ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ ﴾ فليس في صدورهم إلا الكبر والاستكبار عن قبول الحق. بما يفيد ليست المشكلة في طريقة دعوتك لهم، ولا في حجج الله تعالى، وليست في الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما الأمر متعلق بنفوسهم التي استحوذ عليها الكبر من أن يذعنوا للحق. فيرون أنهم أكبر ممن جاءهم بالحق من عند الله تعالى، فيترفعون ويستعلون بأنفسهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يتبعونه، فيحملهم ذلك الكبر على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد وصف الله تعالى قوة استكبارهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ ففي صدورهم من الكبر إلى الحد الذي ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر الذي في نفوسهم. أي: فما هم بالغي مبتغاهم من الكبر، لإفادة مبالغتهم في الاستعلاء، وهو أن يغلبوا الرسول صلى الله عليه وسلم، فنفى سبحانه وتعالى أن يحققوا شيئاً منه أبداً. وهذا النفي هو آية من آيات الله تعالى على نبوته صلى الله عليه وسلم، وعلى أن هذا القرآن هو كتاب الله تعالى، وأن هذا هو دينه عَزَّ وجل، إذ لم يبلغوا مرادهم من الكبر، بل تحقق لهم الذل والهوان والانكسار في كل واقعة لهم. فلا غالب لِمَا نص عليه القرآن الكريم. وكذلك يفيد ﴿ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ ما هم محصلين مرادهم مهما بذلوا من جهد. قال الزجاج رحمه الله تعالى: المعنى: ما في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغي إرادتهم فيه. وقال غيره: لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم قل ارتفاعهم، ونقصت أحوالهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعاً. فأعلم الله تبارك وتعالى أنهم لا يبلغون

الارتفاع الذي أمَّلوه بالتكذيب[١] أي: أن في صدورهم تعظيم وتبجيل لأنفسهم ما هم محصلين له، وما هم بالغين مرادهم. فهو حكم من الله تعالى بانتصار رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الخذلان لهم.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فالجأ أيها النبي إلى ربك سبحانه وتعالى من شرهم وكيدهم ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فتعني الاستعاذة الالتجاء والاستعانة واللوذ بالله عَزَّ وجل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إن ربك عَزَّ وجل ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ الذي يسمع ما يقولون سراً وجهراً، وما يتسارون به من الكيد. كما إن ربك عَزَّ وجل هو ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ الذي يراهم ويبصر كل تحركاتهم وسكناتهم، فلا يخفى عليه من حالهم شيء، بما يفيد إن ربك لهم بالمرصاد والردع، بجعل كيدهم في نحورهم. فلا تخف مما يمكرون به أبداً. وفي هذا تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم بأن ربك عَزَّ وجل كافيك شرهم. وأن الذي عليك هو الاعتصام بربك، بأن تستعيذ به عَزَّ وجل منهم، ومن كل شر.

مما يبين قيمة الاستعاذة ومنزلتها، لِمَا تحمله من دلالات الاعتصام والاعتماد على الله تعالى بأن يكفي من استعاذ به من كل شر: كأن يقول المتعوذ: أعوذ بالله السميع البصير من شر كذا، ويسميه. أو: أعوذ بالله السميع البصير من كل شر. كما يفيد هذا أن الله تعالى عون وسند لمن استعاذ به، وتوكل عليه سبحانه وتعالى.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بما يبين ضعف مكرهم وكيدهم وذلك ببيان عظمة ما خلق من الخلق، والذي يُظهر ويبين عظيم قدرته، وعظيم سلطانه وقهره لمن أراد أن يذله ويخزيه ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق هذا الإنسان، الذي يتعالى بنفسه. فإن من مخلوقات الله تعالى ما هو أعظم من خلق الإنسان. مما يثبت عظيم قدرة تعالى على البعث والحساب والجزاء ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ فأجرام السماوات والأرض، ولكواكب، وجريانها بين السماء والأرض دلائل على أن خلق الإنسان، وإعادته بعد الموت أيسر وأسهل مقارنة بخلق السماوات والأرض. وهو لفت الانتباه لعظمة الكون الذي يدل على أن قدرة الله تعالى أعظم من أن يعيد الإنسان بعد موته، فإعادته مقارنة بهذا الكون العظيم ليست إلا أمراً يسيراً. فلا تستعظم أيها الإنسان وتستصعب إعادة خلقكم بعد موتكم، فعظمة الله تعالى متجلية أمامكم في خلق السماوات والأرض.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١٢/١٥)

ثم يُعين سبحانه وتعالى موقع وسبب الإنكار من الإنسان، فالمشكلة تقع في عقول أكثر الناس. فيقول تبارك وتعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأكثر الناس لا يتدبرون عظمة الله تعالى، فيتعلمون منها كمال قدرة الله عَزَّ وجل، فليس هناك مستحيل على الله تعالى، ومنها البعث بعد الموت، والحساب والجزاء. مما يبين أهمية التأمل والتفكر في الكون فإنه يُعلِّم الإنسان أن الله تعالى على كل شيء قدير. فسبحان الله العظيم، وتنزه عن كل ما يقوله أهل الشرك والفساد، وجميع المنكرين للبعث والحساب والجزاء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى ضرب المثل الذي يوضح الفرق العميق بين المؤمن والكافر، والعاصي والمطيع، فكما لا يستوي الأعمى والبصير في الرؤية فكذلك حال المؤمن الذي يرى الحق والصواب، والكافر الذي يسير في ظلمات الكفر والجهل. فقال سبحانه وتعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فلا يستوي من فقد بصره، فامتنع بفقدان بصره عن أن يرى الأشياء على حقيقتها، فلا يستوي هذا مع من يَنْعَم بالبصر، فيرى الأشياء على حقيقتها؟ فإنهما لا يستويان، فكذلك مَثَلُ المؤمن والكافر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ فهل يستوي من كان أعمى في دينه، وهو الكافر، ومن كان بصيراً في دينه، وهو المؤمن الموحد، فإن الأعمى في دينه جاهل بما يجب عليه، وما يلزمه، بينما المؤمن الموحد البصير، عالم وعارف بما يجب عليه، وما يلزمه في دينه. فهل يستويان هذان الاثنان؟ والجواب حتماً، لا يستويان، إذاً فلماذا تتعاملون أيها المنكرون مع الله تعالى في عبادتكم له كالأعمى الذي فقد حقيقة الأشياء؟ وكأنكم لا تدركون ولا ترون انحراف وفجور ما أنتم عليه، من عبادة الأصنام العاجزة عن نفسها، فلو أن إنساناً حطمها، لما استطاعت أن تدفعه، أو تدفع أذاه. فإنها محاجة تستثير العقل، وتُبصره بالحق والحقيقة، وتكشف له واقعه. مما يؤكد أهمية الحوار الذي يكشف للمتلقي جهله، وقصوره وأخطاءه التي هو عليها.

فهو ضرب مثل وبأسلوب التقرير الذي يستثير العقول بالقياس الذي لا يختلف عليه اثنان من أن المؤمن والكافر لا يستويان. فَشَبَّه الكافر بالأعمى الذي لا يبصر، فانتفى منه رؤية الحق، وشَبَّه المؤمن بالبصير الذي رأى الحق فأدركه وأخذ به بعد أن أبصره، فهو في نور من ربه، بينما الكافر في طريق مظلم. كما نفى التساوي مطلقاً، ليستوفي النفي حاله في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالمؤمن محبوب عند الله تعالى، بينما الكافر مبغوض في الدنيا والآخرة، والمؤمن في الجنة، والكافر في النار.

ثم ينبه تبارك وتعالى إلى قلة ما يتذكر هذا الإنسان ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل ما يتذكر هذا الإنسان بالرجوع إلى الحقائق التي تذكره بالصواب. بما يفيد كثرة الشواهد والأدلة التي يغفل عنها الكثير من الناس. أو يتغافل عنها، مما ينبه الإنسان عموماً والمؤمنين خصوصاً على أهمية الانتفاع بالتذكر للشواهد وقراءتها واستصحابها في الأحوال المختلفة، فإنها تزيد الإيمان، وترفع مستوى الفهم، فيرتقي بها الفكر والعمل. مما يصحح ويعدل فهمه وسلوكه وإرادته للخير، وحسن التدبير والتعامل، واغتنام فرصة الحياة للتزود منها للآخرة. فمن يتذكر اختلاف الليل والنهار، وتداخلها، ونزول الغيث، وإنبات الزروع، وانتعاش الأرض بعد موتها، فإنه يستصحب معها عظيم قدرة الله تعالى، وأنه هو المنعم، وأنه على كل شيء قدير، ومنها البعث والنشور، والحساب والجزاء، وأن لكل امرئ بحسب ما اكتسب من الخير أو الشر.

ومن دقائق البيان الكريم أن السياق جمع لحال البصير الإيمان وعمل الصالحات ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ليدل على الترابط بين الإيمان وعمل الصالحات التي تشكل شخصية المؤمن. فالانتفاع هو بالجمع بين الإيمان وبين العمل بشريعة الله تعالى. ومن دقائق البيان أن ورد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بصيغة الجمع، بينما ورد المسيء بصيغة المفرد ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ باعتبار التفاوت في درجات الإيمان وعمل الصالحات بين المؤمنين، بينما المسيء فهو يمثل حالة واحدة هي حالة الكفر، وهي حالة العبد الذي لا يقبل الله تعالى منه شيئاً أبداً. فالكفر واحد مهما تنوع. وبناء على هذا التباين بين الفرقين فقد ترتب عليه اختلاف الجزاء وتباينه وتضاده، فللمؤمنين الجنة، وللكافرين النار.

وبعد بيان كمال قدرته سبحانه وتعالى، ثم بيان المفارقات بين الأعمى والبصير والمؤمنين والمسيء يخبر عَزَّ وجل عن مجيء الساعة، بأنها حق لا ريب ولا شك فيه ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإن الساعة التي هي يوم القيامة قادمة قطعاً بلا شك ولا ريبة ﴿لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا ريب ولا شك في وقوعها، ولا محيل عنها أبداً، ثم يذكر تبارك وتعالى حال أكثر الناس في التصديق بالبعث بعد الموت، ليؤكد به تبارك وتعالى بعثه لعباده من قبورهم بعد فنائهم، فيقول عَزَّ وجل

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ولكن أغلب الناس ينكرون البعث، فلا يؤمنون بذلك، وهم الكفرة الذين يشكلون أكثر الناس، فهم ينكرون الخروج من القبور، وأن يعود الناس إلى الحياة مرة أخرى، لتحصيل الحساب والجزاء. ومن دقائق البيان ورود حرف ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الذي أثبت ما قبلها ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ وبيان وتأكيد أن العلة في إنكارها عائد للإنسان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فالشأن ليس في عدم وقوعها، بل الشأن والمشكلة في أن أكثر الناس غير مصدقين.

ثم يُرَغِّب الله سبحانه وتعالى عباده في طاعته، وأن لا يجعلوا سابق ذنوبهم مانع لهم من الدخول في الإسلام والإيمان، أو من القنوط من رحمته سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل بخطاب مباشر للعباد ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فإن ربكم يخبركم بأنه يقول لكم أيها الناس ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ أي: اتجهوا إليَّ بالدعاء، في طلبكم ودعواتكم ورجائكم وعبادتكم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ﴾ وحدوني وأفردوني بالدعاء، ولا تشركون بي شيئاً، فالدعاء يفيد ويعني الإنابة والتذلل لله تعالى، وما يتضمنه من الطلب، وما يلزمه من توحيد الله تعالى وطاعته ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ أتقبل منكم ما دعوتم به، وأتقبل عبادتكم، واغفر لكم. وهو شامل للدعاء، ولجميع العبادات الشرعية المشروعة. فمن وحد الله تعالى وأفرده في الدعاء، فإنه دليل على إيمانه بربه، وإيمانه بربه يلزمه طاعته وفق ما أمر وشرع سبحانه وتعالى. ومن دقائق البيان أن جعل الاستجابة مرتبطة ومقيدة بتوحيده وإفراده سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ بما يفيد إن أشركتم معي غيري فلا حظ لكم عندي من الخير.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عمن يتعزز بالدعاء والافتقار إلى ربه جَلَّ جلاله، معتمداً على نفسه وجهده، أو على غيره من الأسباب، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فإن الذين قد دفعهم استكبارهم عن اتباع الحق، وأصبحوا متعالين عن عبادة ربهم عَزَّ وجل ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ سيدخلون جهنم يوم القيامة وهم ﴿دَاخِرِينَ﴾ ذليلين صاغرين، بما يفيد التهديد الشديد لمن استكبر عن عبادة الله تعالى وعن توحيده، فأصر على كفره بسبب استكباره وأنفته من أن يطيع الرسول صلى الله عليه وسلم. ويشمل كل من استكبر وعاند طاعة ربه عَزَّ وجل. مما يفيد أن الله تعالى يحب الموحدين المؤمنين، ويحب الدعاء، ويحب الذين يُلِحُّون في دعائهم لربهم عَزَّ وجل. وهذا من

كمال لطفه تبارك وتعالى ورحمته بعباده، وإحسانه إليهم، إذ يرشدهم إلى الحق والخير، ويتوعد من يستنكف ويتكبر، ويغتر بما هو عليه من النعمة، فإن الله تعالى هو الْمُنعِم، وهو المسخر للأسباب جميعاً.

ويستمر التوجيه من الله تعالى عن بيان عظمته وقدرته عَزَّ وجل، وعظيم سلطانه، بما يفيد بطلان الجحود والاستكبار لمن هذا ملكه وتدبيره، وبما يحثهم على الإيمان، وتوحيده وطاعته، وسؤاله وحده لا شريك له عَزَّ في علاه، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ فإن ربكم هو الذي جعل لكم الليل ظلاماً، من أجل أن تسكنوا فيه، وتُريحوا أبدانكم، بينما جعل لكم النهار نوراً، لتبصروا فيه حاجاتكم، وتطلبوا فيه معاشكم. وأن هذا هو من عظيم فضل ربكم عليكم الذي يستوجب طاعته وتوحيده، والإيمان بما جاءكم به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد لفت جَلَّ جلاله انتباه المتلقي إلى قدرته عَزَّ وجل وإبداع خلقه، وتصريف أمور ملكه بما يقتضي حكمته، فإنه جعل لكم الليل ظلاماً، من أجل أن تسكنوا فيه، وتُريحوا أبدانكم، وتستجمعوا فيه قواكم بمنامكم الذي منحكم إياه تفضلاً ورحمة منه سبحانه وتعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ بينما جعل لكم النهار نوراً، لتبصروا فيه حاجاتكم ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ فيكون مهيأ لكدحكم، وطلبكم الرزق، وتنقلكم، وذهابكم وإيابكم. وفي هذا استثارة لذهن المتلقي عمن دبر هذا على قدر حاجتكم من غير سؤال ولا طلب ولا معرفة منكم؟ أليس هذه حجج وعبر ودروس من آيات الله تبارك وتعالى، والتي تحثكم على الإيمان وطاعة الرحمن الرحيم، والإيمان بما يخبركم به رسولكم صلى الله عليه وسلم من البعث والحساب والجزاء، ولزوم طاعته وعبادته وفق ما شرع لكم.

ثم يبين كرمه ورحمته سبحانه وتعالى بعباده ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ فإن ربكم ذو فضل على الناس جميعاً، فمن فضله على الناس أنه يرزقهم ويمنحهم من نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى، وأنه لا يستعجل لهم العقوبة، فيمهلهم، لعلهم يتوبون ويستغفرون ويرجعون للحق، وإلا كيف سيكون حالهم لو أن الله تعالى عَجَّلَ لهم العقوبة، فإن جميع هذا الإنعام يستحق الشكر من الناس لربهم سبحانه وتعالى، لكن المشكلة تكمن في الناس أنفسهم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ فأكثر الناس لا يشكرون الله تعالى على ذلك، وكان الأولى الاستجابة لله تعالى بالشكر والامتنان والطاعة والانقياد. مما يفيد أهمية الشكر، وكثرة الحمد لله تعالى. ومن دقائق البيان ورود حرف ﴿ وَلَٰكِنَّ ﴾ الذي أثبت ما قبله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ وبيان وتأكيد أن العلة في عدم الشكر لهذا الإنعام عائد للإنسان ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ

لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فالشأن ليس في قلة النعم بل الشأن والمشكلة في أن أكثر الناس غير شاكرين لربهم سبحانه وتعالى. مما يفيد عدم إحساسهم بهذه النِّعَم العظيمة الكثيرة، والمتتالية عليهم.

وبعد أن أورد سبحانه وتعالى ما أنعم به على العباد من آيتي الليل والنهار، وما تفضل به عليهم من جميع النعم، يؤكد لهم ويبين أن هذا الذي خلق هذا الكون هو الله ربكم سبحانه وتعالى. فيقول عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ وبدأ البيان باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ لشد الانتباه بما يعود إليه اسم الإشارة؛ وهو الله تبارك وتعالى الذي خلق لكم الليل والنهار ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فعاد باسم الإشارة إلى لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ بأنه هو وحده لا شريك له الذي خلق ودبر لكم هذا الخلق بأحسن تدبير، إنه الله ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ الذي هو الخالق والمالك والمتصرف، والذي رباكم بالنعم، وبالآيات والدلائل والشواهد التي تثبت وتبين لكم أن ربكم هو الله وحده لا شريك له. ليستنتج العبد من ذلك توحيده وطاعته، وتصديق كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم. وليتحقق به: كيف نترك ربنا عَزَّ وجل ونتجه لعاجز من المعبودات. وليستنتج به أيضاً: أنه يجب علينا شكر الله سبحانه وتعالى، وطاعته والامتثال لدينه الذي أنزله على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل بالمخاطبين بعد ذلك إلى عموم ما خلق سبحانه وتعالى ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فربكم الذي خلقكم هو الذي خلق كل شيء، فهو خالقكم وخالق الكون كله. وبالتالي له كل التصرف وكماله وفق ما شاء وما يشاء جَلَّ جلاله. وهو تقرير بكمال الملكية وكمال الإرادة والمشيئة، والكيفية التي يراها ويريدها سبحانه وتعالى. فإنه ما من شيء إلا وهو خلق من خلقه عَزَّ وجل. ثم ألحق بذلك البيان إثبات وحصر العبودية له عَزَّ وجل، فقال تبارك وتعالى ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحق إلا الله ربكم سبحانه وتعالى، ليقطع بذلك أن كل معبود غيره عَزَّ وجل فهو باطل، وأنه بغير حق. فينفي بذلك كل معبود غيره عَزَّ وجل. وقد تضمنت دلالة ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفي الألوهية عن غيره تبارك وتعالى ﴿ لَّآ إِلَٰهَ ﴾ التي أفادت النفي لكل إله ومعبود، ثم حصر الألوهية له فقط عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ فكل مألوه غير الله تبارك وتعالى باطل من أصله، فلا يوجد إله غيره سبحانه وتعالى، فمن عبد غير الله تعالى فقد اخترع إلهاً مزعوماً، وبالتالي كفر بربه عَزَّ وجل.

وبعد بيان الحقيقة وتجليتها للناس، يوجه تبارك وتعالى لهم سؤالاً عن انصرافهم عن الحق إلى الباطل، فينتقل بهم البيان إلى السؤال الذي يثير علة غياب عقولهم عن الحقيقة، حتى انحرف سلوكهم إلى أضداد الحقيقة ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تُصرفون وتنقلبون عن الحق، وتتوجهون إلى الباطل؟ فإلى أي وجه عن الحق وعن

قصد السبيل وطريق الرشاد تتوجهون وتنصرفون وتنقلبون؟ فهو سؤال يستعيد المسؤول به الحقيقة، فما الذي يصرفكم عن الحق والحقيقة فتتوجهون إلى الباطل. فإنه أمر عجيب عن انصرافهم عن توحيد ربهم عَزَّ وجل إلى الإشراك به، فيستثير تبارك وتعالى عقول وانتباه المُخَاطَبين وعموم الناس ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تُصرفون؟ سؤال عن انصرافهم للباطل عن الحق الواضح المبين، بما يفيد التعجب من أنه بالرغم من وضوح جميع الحقائق الكاملة البيان والوضوح، إلا أنه مع ذلك يذهبون إلى الباطل والفاسد.

ومعنى ﴿ تُؤْفَكُونَ ﴾ تُصرفون، وقد حُذف الفاعل الذي أدى إلى انصرافهم، من أجل أن يستوفي جميع أسباب انصرافهم عن الحق إلى الباطل، وهذا من دقة البيان في استيعاب المراد. فدوافع الانصراف عن الحق بسبب الكبر، وبعضها بسبب الحسد، وبعضها بسبب مجاراة الكبراء، وبعضها لمتابعة الشهوات، وغير ذلك من أوجه الصرف والانصراف عن الحق. ومعنى ﴿ فَأَنَّىٰ ﴾ أي: كيف؟ فكيف لكم أن تنصرفوا عن الحق الظاهر لكم من الحجج والآيات الكونية العظيمة، وما أمدكم به من الإنعام التي يعجز عنها كل مخلوق، ولا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه وتعالى. فتذهبون للشرك، وما يمثله من العجز والضعف، وتتركون الغني المغني. فهي محاجة تنهض بالفكر من غفلته وسباته إلى اليقظة والانتباه، لمن أراد الحق.

فكيف تتجهون بعقولكم نحو الباطل ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عقولكم عن الحق إلى الباطل، تاركين وصادين عن الحق، ومجاهرين بما هو مضاد له. فتصرفون عبادتكم وتوجهكم لما لا يرزق، ولا يخلق، ولا يُحيي ولا يُمِيت. فإنها محاجة بليغة الأثر، وقوية البيان والحجة والبرهان، فلا يصد عنها إلا مكابر معاند. ومن جميل السياق ودقته أنه جاء الإنكار عليهم بعد تقرير الحق، وتجليته، وكان بصيغة الاستفهام الإنكاري ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تَصْرِفكم عُقُولُكم عن الحق، فتذهبون إلى معبودات لا ترزق، ولا تحكم، ولا تنشئ، ولا تحيي ولا تميت؟ وبالتالي كيف تصرفون العبادة لغير الله تعالى وأنتم تعلمون أنه الله هو الخالق، والمنعم عليكم بالنعم التي تعيشونها.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن عاقبة أهل الجحود لآياته وإنعامه سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوٓاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ فكما كذبتم وجحدتم بالحق، وأعرضتم عنه، واتجهتم إلى الباطل ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ فمثل ذلك الانصراف بالتكذيب ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوٓاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ كذلك تكون عاقبتهم بأن يُصرفون عن آياته وحججه، فيموتون على كفرهم عقوبة

لهم ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ فدلالة كلمة ﴿يُؤْفَكُ ﴾ تفيد أنه يُمنع ويُكَذَّب ويُضل. فإن من جحد وكذب فإنه يُكَذَّب ويُمنع ويُضل جزاء له بما يوافق جرمه وتكذيبه وجحوده الباطل، فيعاقب بمثل ما كان منه، جزاء وفاقا.

قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: أُفِكَ الرجلُ: إذا عُدِل به عن الصدق(١) قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله تعالى، وتعديهم على رُسله، صُرِفُوا عن التوحيد والإخلاص(٢) فلازمهم الكذب والإنكار بما طبع الله تعالى به على قلوبهم جزاء وفاقا، وذلك لما كانوا ينكرونه ويستبعدونه من الحق. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله تعالى، كذلك إفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله تعالى وآياته(٣) وقد أفادت دلالة الجحود ﴿ ٱلَّذِينَ كَانُوٓاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ عدم الاعتراف بالحقيقة التي يعرفونها ويدركونها، فهو إنكار لما هو متقرر في نفوسهم، وبما يفيد أنهم يتظاهرون بالمكابرة والإنكار، بينما حقيقة الأمر في نفوسهم أنهم مدركون للحق. فهو بيان تحليلي لعمق ما في نفوسهم من العليم الخبير سبحانه وتعالى.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

بعد أن أوضح سبحانه وتعالى فيما سبق شيئاً من مظاهر قدرته في خلقه وإنعامه على عباده، أتبع ذلك بإظهار وبيان إنعامه على عباده بشتى أنواع النِّعَم، فقال جَلَّ جلاله ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٧/٦)
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٧٤/٤)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩٣/٤)

قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى سخر لكم الأرض، بأن جعلها مستقرة لكم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي: مستقرة ليتحقق لكم الاستقرار عليها، فلا تهتز ولا ترتجف ولا تميل بكم عما هي عليه. وهذا يدعو الإنسان إلى التفكر في الزلازل التي تحدث نادراً، وفي بعض الأماكن من الأرض، كيف لو كانت جميع الأرض على هذه الشاكلة، لكان الإنسان في خوف دائم، ولا استقر له العيش والمعيشة الطيبة، ليتبين أن تلك الزلازل التي تحدث ما هي إلا مظهر من مظاهر الدلائل التي تكشف وتبين للإنسان كيف لو أن الأرض برمتها على ذلك المنوال؟ حتى تظهر له قدرة الله تعالى، وتظهر له نعمة الله عَزَّ وجل باستقرار الأرض. فيتحقق لكم أيها الناس بهذا الاستقرار أداء مصالحكم المتنوعة، من البناء، والزراعة، والسير في الأرض أنى شئتم، وأنتم في طمأنينة من ربكم سبحانه وتعالى. فإن ربكم هو الذي جعل لكم الأرض قرارا ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ فإن ذلك آية من آيات الله تعالى، تدل على أنه مالك الملك، وانه المنعم على عباده باستقرار الأرض. وأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم يتدرج البيان إلى لفت انتباه الإنسان إلى آية خلق السماء، فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ وجعل ربكم السماء سقفاً قائماً ثابتاً، محفوظاً، فلا تسقط عليكم، وشيد لكم فيها الشمس والقمر والنجوم وعموم الكواكب، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر. وكذلك من دلائل قدرته، وعظيم إنعامه عليكم أيها الناس هو أ، خلقكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ ﴾ فأنشأكم، بخلقكم وإيجادكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ فجعل خلقكم في أحسن وأجمل صورة. فلو تأمل الإنسان في خلقته وفي باقي المخلوقات من الحيوانات لوجد أنه أحسنها وأجملها من كل وجه، بل وأفضلها عقلاً وحركة، وصورة، وقدرة، ونطقاً، وغير ذلك. بل سخر غيره له من الحيوانات، وتذليل الأرض، واستخراج ما فيها من الخير. فإذا تدبر الإنسان ذلك أدرك عظيم نعمة الله تعالى عليه، بما يستوجب منه الشكر لربه، بتوحيده، وإفراده بالعبادة على الوجه والمنهج الذي أنزله سبحانه وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى عظيم ما أنعم به على العباد من الرزق، فقال تعالى ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ فرزقكم ما تستطيبونه من المأكولات والمشروبات المتنوعة في أشكالها، ومذاقها، وأحجامها، وألوانها، وكل شيء منها مستطاب للنفس وللذوق. فإنها نعمة عظيمة، وآية كريمة، تدل على قوة التدبير من الخالق سبحانه وتعالى، إذ وافق بين المخلوقات من الطيبات وبين استطابة النفس البشرية للطيبات، فمن الذي دبر هذا بهذه الكيفية العجيبة العظيمة، والدالة على عظمة الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير، وأنه المنعم والمتفضل

على هذا الإنسان بما أنعم. فأين شكر النعمة؟ فإن شكرها تستوجبه العقول الصحيحة والفطر السليمة، التي تؤمن بأن الله تعالى واحد أحد، وفرداً صمد، لا إله إلا هو، وحده لا شريك له، وأن كل ما أخبر به من الغيب هو صدق، ومتحقق لا ريب فيه ولا شك، ومن ذلك البعث والحساب والجزاء، وأن الجنة حق، والنار حق، ولا ريب فيهما أبداً كما أخبر سبحانه وتعالى.

وبعد أن استعرض البيان الكريم شيئاً من مظاهر الكون العظيم، من استقرار الأرض، وقوة تماسك السماء، وجمال وجميل خلق الإنسان، وتفضله سبحانه وتعالى بالطيبات من الرزق، يتدرج البيان العظيم إلى إظهار أن المدبر لذلك هو ربكم. وقد أورد سبحانه وتعالى التوجيه الكريم بالرجوع إلى ما سبق من التوجيه والبيان، فَيُعِيدُ اللهُ تبارك وتعالى الْمُخَاطَبين باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى ما تقدم ذكره من التدبير والتقدير العظيم، ليتأكد ويتبين لكم أيها العباد ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فالذي صنع ما ذكره لكم هو الله ربكم، فله كامل الملك، لا شريك له في ملكه.

ثم ينتقل البيان إلى التعظيم والتمجيد لذاته عَزَّ وجل، وبيان عظيم امتنانه على عباده، بما بينه لهم من عظيم تسخيره، وعظيم خلقه وتدبيره عَزَّ في علاه، فقال تبارك وتعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ تفيد التعظيم والتقديس لذاته سبحانه وتعالى، بما أفاض من الإنعام والخيرات على عباده، بما أظهره وبينه لهم. فتبارك الله عَزَّ وجل. قال الفراء رحمه الله تعالى: إن تبارك وتقدس في العربية واحد، ومعناهما العظمة، وقيل المعنى: تبارك عطاؤه، أي: زاد وكثر. وقال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه وتعالى، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي[1] فتزايد خيره وتكاثر، وعَظُم سبحانه وتعالى في أوصافه وأسمائه وأفعاله، وعَلَت عظمته وقدرته وجلاله، وحَلَّت وعَمَّت ودامت بركته وكثر خيره وفضله وإحسانه، فهو رب العالمين الذي له الخلق والأمر. فتقدس وتنزه وتعالى وتعاظم.

وقد وصف الله تعالى نفسه الكريمة بما هو حقيقة له ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: تعاظم رب العالمين الذي هو ربكم، وكثر خيره وإحسانه. وقد أفاد قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن ربكم هو رب العالمين، أي: هو رب السماوات ورب الأرض وجميع ما بينهما من المخلوقات. فهذه المخلوقات وهذا التدبير، وهذه الحقائق العظيمة، هي لله سبحانه وتعالى. فإن الخالق لها هو رب العالمين.

---

(1) الشوكاني، فتح القدير (٤/٦٠)

وبما يفيد أن من كانت أفهامهم قاصرة عن ذلك، وقلوبهم لم توقن بذلك فإنهم حينئذ لا يعلمون ولا يفهمون، ولا يستفيدون مما يشاهدون من الحقائق. وبما يفيد أنهم أهل جحود واضح وظاهر مبين.

فقد وردت الآية الكريمة وما قبلها من الآيات بأسلوب الالتفات إلى قدرة الخالق، بما يبين بها قوته وقهره وعزته. مما يعطي ويفيد في الجانب التعليمي والوعظ والإرشاد أهمية بيان ما في الكون من عظمة التدبير، وعظمة السلطان، والإنعام، فإن فيها مواعظ تنهض بالعقول والقلوب نحو إدراك الحق. وهنا يظهر تناسق التسخير بين خلق الإنسان وبين ما يحتاجه. وما يبين قوة قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه، وقوة تسخيره وإنعامه، وقدرته على الخلق بما يشاء وكيف يشاء، ولا يتقدم منها شيء، ولا يتأخر منها شيء البتة إلا بأمره وتدبيره. وبما يدل على عظيم مُلْك الله تعالى، وعظيم قدرته وسلطانه، وجمال وكمال تصرفه، لتتجلى ملكية الله تعالى للكون كله، فهو رب العالمين ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ مما يثبت عظيم تدبيره وقدرته وتصرفه في ملكه، فلا يُعجزه شيء، ومن ذلك بعث الناس بعد الممات، فإنه لا شيء يريده سبحانه وتعالى إلا ويتحقق كما أراد. فانتبهوا أيها العباد لقدرة الله تعالى، وانتبهوا من الظلم لأنفسكم بالشرك، وعموم الكفر، وفي نفس الوقت يغرس هذا البيان الكريم العظيم المزيد من الإيمان لدى المؤمنين. فيزداد به اليقين، بأن الله تعالى هو رب العالمين، والمتصرف فيه بما يريد ويشاء.

ثم يزداد البيان إيضاحاً ووعظاً للعباد، بأن ربكم أيها الناس هو الواحد الأحد، الذي لا شريك له في ملكه، والذي أوضحه لكم في آياته المقروءة، وآياته الكونية في عموم مخلوقاته، فقال عَزَّ وجل ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فإن ربكم تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ المنفرد بكامل الحياة. فيقرر جَلَّ جلاله لذاته العظيمة صفة الحياة الدائمة ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ أي: المنفرد بكامل وكمال الحياة، فكل ما عداه يموت ويزول. وتُفيد وتُعَلِّمُ صفة انفراده سبحانه وتعالى بالحياة الكاملة ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ أن حياة المخلوقات ناقصة، بما يعتريها وبما تنتهي إليه من الزوال والفناء، وهي عدمٌ قبل وجودها، ثم موت بعد وجودها، وأن الله تعالى حيٌّ حياة كمال كاملة، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء.

ثم ينتقل البيان الجليل إلى تقرير وحدانية الله سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ جل ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وهذا بيان بانفراده سبحانه وتعالى بالألوهية ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فقرر عَزَّ وجل أنه المعبود وحده لا شريك له، وذلك بحصر العبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله غيره، فنفى كل إله ومعبود غيره سبحانه وتعالى، وحصر العبودية فيه وحده لا شريك له. فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن مَنْ عبد غير الله تعالى فقد كفر

بربه وخالقه عَزَّ وجل. وقد تضمنت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفي الألوهية عن غيره عَزَّ وجل ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ فلا إله غير الله تعالى، فأفاد النفي: القطع والجزم بأنه لا ألوهية لأحد غيره سبحانه وتعالى، ثم حصر الألوهية له عَزَّ وجل ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فكل مألوه غير الله تبارك وتعالى باطل من أصله، فلا يوجد إله غيره سبحانه وتعالى، فمن عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه عَزَّ وجل.

ثم يأمر سبحانه وتعالى عباده بأن يخلصوا له العبادة في أفعالهم وأقوالهم ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وقد ورد الدعاء هنا عاماً﴿فَٱدْعُوهُ﴾ ليتضمن الأمر دعاء العبادة ودعاء المسألة، وعموم ما يتعلق بالطاعة، بأنها إنما تُؤدَّى له سبحانه وتعالى، ليتحقق بها الإخلاص ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: قاصدين ربهم سبحانه وتعالى في إقامة شعائر الدين. فتضمن ذلك المتابعة، وتضمن الإخلاص لله عَزَّ وجل. ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بعظيم الثناء لجلاله سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فجميع المحامد من الشكر والثناء والمدائح له عَزَّ وجل، ما كان اعتقاداً بالقلب، وما كان نطقاً باللسان، وما كان عملاً وفعلاً بالجوارح، لأنه سبحانه وتعالى هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رب جميع العوالم، ما تدركونه وترونه، وما لا ترونه ولا تدركونه. فهو رب السماوات وما ارتفع، ورب الأرض وما فيها وما عليها من الخلق. وفي هذا ما يبين ويؤكد أن كل عمل ليس على منهج الله تعالى فهو مردود على صاحبه، وغير مقبول عند الله سبحانه وتعالى. كما أن كل عمل ليس خالصاً لله تعالى فلا قيمة ولا وزن له عند رب العالمين.

ثم يوجه سبحانه وتعالى عباده إلى التوحيد والانقياد له بالطاعة، من خلال ما أمر به رسوله صلى الله عليه وسلم، بما يقوله ويعلنه للناس، بأن هذا هو المنهج الذي أمر الله تعالى رسوله به عليه الصلاة والسلام، فقال تبارك وتعالى ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقل لهم يا محمد إن الله تعالى نهاني ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ والنهي يقتضي الامتناع ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ نهيت أن أعبد المعبودات من الأصنام والأوثان التي تدعونها، وتتقربون إليها، وتخافونها وترجونها من دون الله سبحانه وتعالى. وحقيقة النبي صلى الله عليه وسلم أنه ممتنع أصلاً من أن يحصل منه ذلك، ولكن لبيان ما يفكرون فيه من احتمال ورجاء أن يطاوعهم، ويلبي طلبهم، فيقطع بذلك الأمل والرجاء في أن يترك النبي صلى الله عليه وسلم دينه ويذهب إلى معبوداتهم، وبالتالي فليس أمامهم إلا الإسلام، أو مسلك الجحود والكفر والشرك والعناد، فحاشاه صلى الله عليه وسلم من

أن يكون منه شرك، أو أن يفكر فيه، وهذا أسلوب يخاطب به سبحانه وتعالى ما يفكرون فيه، فإن كنتم تفكرون في ذلك، فلن يكون منه صلى الله عليه وسلم ما تتوهمون وتفكرون فيه.

كما أن في هذا بيان وتوضيح لحقيقة مسلك المشركين بأسلوب الاستبعاد من أن يسلك نبي الله مسلكهم صلى الله عليه وسلم، مع بيان وتوضيح مكان الضلالة عندهم، بأنه الشرك، وهو أن تدعوا من دون الله تعالى غيره من الأصنام والأوثان وغيرها من المعبودات ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ثم يبين ويوضح تبارك وتعالى وجه النهي الذي يقوله صلى الله عليه وسلم للمشركين، فالوجه الأول من ذلك هو: ورود البينات الواضحات من ربي ﴿ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي ﴾ وهي الأدلة والبراهين النقلية بالوحي من ربي سبحانه وتعالى، وكذلك الأدلة العقلية التي تحيط بنا فيما خلق الله تعالى من الكون، ونعيشها ونتعايش معها من المخلوقات، فجميعها تدل على وحدانية الله تعالى، وأنه لا شريك له. والوجه الثاني: هو الأمر من الله تعالى الذي يعضد الأدلة النقلية والعقلية ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وأمرني ربي أن استسلم له بالخضوع والانقياد والمتابعة له سبحانه وتعالى.

ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى بيان دقائق خلق الإنسان، وما فيها من عظيم قدرة الله تعالى، وإنعامه التي توجب عبادته وحده لا شريك له، ووجوب شكره بكمال الطاعة والإيمان والإخلاص له عَزَّ وجل، فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فإن كنتم في ريب وشك وانعدام لليقين من البعث فتأملوا سنن خلقكم التي يزول بها ريبكم وشككم. فتأملوا مراحل تكوينكم. فأولاً: تأملوا أصل خلقكم ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ فربكم هو وحده الذي خلقكم من تراب، فليس هناك خالق غيره لكم، وبالتالي كيف تتجهون لغيره من المخلوقات وتتركون وتذرون خالقكم. فإن أصل خلقكم الأول من تراب، بناء على أصل خلق أبو البشرية آدم عليه السلام الذي خلقه الله تعالى من التراب. فأعادهم سبحانه وتعالى بذلك إلى الأصل في خلق أبيهم آدم، بأنه خُلِقَ من التراب، ثم خلق زوجه حواء منه، ثم خلق أولاده منهما. فأعاد عَزَّ وجل الْمُخَاطَبين إلى أصلهم الأول، وهو التراب. وهو الأصل الذي يدل عليه ويؤكده تحول أجسام بني آدم عند دفنهم إلى تراب، والذي يمثل الأصل الأول. فإن هناك تجانس في الحقيقة بين مادة أصل جنس هذا الإنسان، وبين ما يتحول إليه رفاته، والذي يؤكد بعضها بعضا حقيقة أصل جنس الإنسان أنه من تراب. وهذا من دقائق الإعلام والتفهيم، بأن يبدأ تعليم الجاهل من أصل المعرفة، ثم الترقي معه وبه إلى ما هو أعلى.

ثم يترقى بهم سبحانه وتعالى في التعليم إلى ما يعايشونه من الخلق والتخليق، فيبين عَزَّ وجل المرحلة التالية لخلق الإنسان في رحم الأم ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي: من مني، وسمَّاه سبحانه وتعالى نطفة لقلته، إذ هي قطرة صغيرة. فجعلها بقدرته عَزَّ وجل تتخلق في أطوار ليكون منها الإنسان. فهو إيجاد بعد العدم من تلك النطفة. وبالرغم من صغر حجمها وضعفها فإنها تتحول في أطوار حتى يخرج الإنسان من بطن أمه سوياً.

فتتحول هذه النطفة بقدرة الله تعالى إلى علقة ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدم الجامد الذي تحول وتَكَوَّنَ من ماء الزوج والزوجة. فبالرغم من صغر حجم هذه النطفة وضعفها إلا أنها تتحول بقدرته عَزَّ وجل إلى علقة ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدم الجامد الذي تحول وتَكَوَّنَ من المني الأبيض، إلى قطعة دم حمراء. ثم تتحول هذه العلقة التي هي عبارة عن دم أحمر إلى لحمة كالمضغة الصغيرة التي يمضغها الإنسان. ثم يبين سبحانه وتعالى المزيد عن قدرته ومشيئته وعظيم سلطانه ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ وهي مرحلة الخروج من الرحم إلى الدنيا، بما يبين اكتمال أطوار الجنين في الرحم. وورد لفظ الطفل مفردا ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ وذلك باعتبار الجنس المتضمن والشامل للواحد والجمع، وكذلك باعتبار الْمُخَاطَب ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ نخرجك أنت طفلا، وقد نَسَبَ سبحانه وتعالى الإخراج له ﴿ يُخْرِجُكُمْ ﴾ لبيان كمال القدرة والمشيئة، وأنه لا يخرجه طفلاً إلا هو سبحانه وتعالى، وبإرادته، وليس بإرادة الأم الحامل، بل ليس لها حتى اختيار اليوم، ولا حتى ساعة ولحظة الولادة. حتى في المشافي؛ فإنهم يُخرِجُون الطفل بإرادته سبحانه وتعالى، فلو لم يرد ذلك لأماته عند إخراجه أو قبل أو بعد.

وأفاد حرف ﴿ ثُمَّ ﴾ الترتيب ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي بعد اكتمال خلقه في الرحم؛ فإنه يتم إخراجه إلى الحياة الدنيا طفلاً. والطفولة دلالة الضعف من كل وجه، في بدنه وإرضاعه، وفهمه وسمعه وحواسه، وحركته وتقلبه، وفي عقله وجهله، وانتفاء قدرته. ومع هذا عطف قلوب الأمهات شفقة ومحبة ورعاية لهذا الطفل، بل وتتحمل معاناة رعاية شؤونه. ومن عظيم قدرته ورحمته جَلَّ جلاله أنه أجرى وساق في ثديها طعام طفلها، فضلا منه تبارك وتعالى، ورحمة وتدبيراً. ليعطي دلالة على عظمة قدرته ورحمته، بل وليس لقوة شفقتها وطمعها أي أثر وتأثير، بل فضلاً منه ورحمة سبحانه وتعالى.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن قدرته ومشيئته فيمن يُكتب له مزيد عمر بعد ولادته ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ فمن له مزيد عمر قد أراده الله تعالى له، فإنه ينقله في تتابع إلى ما يشاء من مراحل نموه،

ومنها مرحلة الأشد ﴿ ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ﴾ والأشد هو: بلوغ مبلغ النكاح، واستجماع القوى الجسمية والعقلية، وحصول الرشد. وطَورُ الأشد هو: المرحلة التي يبلغ فيها الرجل قوته الجسمية، وكمال عقله. قال الفيروزي أبادي رحمه الله تعالى: حتى يبلغ أشده أي: يضم أوله، أي قوته، وهما ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين سنة[١] وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: واحدة الأشد شِدَّة، والشدة القوة والجلادة، والشديد الرجل القوي، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: هو من نحو سبع عشر إلى أربعين، وقال مرة: هو ما بين الثلاثين والأربعين[٢] وقال السيوطي رحمه الله تعالى في سورة الأحقاف ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ أشده: هو كمال قوته وعقله ورأيه، أقله ثلاث وثلاثون سنة، أو ثلاثون. ﴿ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي: تمامها، وهو أكثر الأشد[٣] مما يفيد أن الإنسان عموماً: إنما يَكْمُلُ رشده في سنوات هذه المرحلة. من سبعة عشر إلى الأربعين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن قدرته ومشيئته فيمن يُكتب له مزيد عمر بعد مرحلة الأشد، فقال تعالى ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ﴾ والشيخ هو من جاوز وتعدى الأربعين سنة. ثم يخبر سبحانه وتعالى عن إرادته لبعض خلقه من الحياة ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ ﴾ ومنكم من يتوفاه الله تعالى قبل أن يبلغ سن الشيخوخة، ومنكم من يتوفاه الله تعالى بعد سن الأشد. فتشمل دلالة قوله تعالى ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ ﴾ جميع المراحل السابقة. أي: ما قبل وما بعد سن كل مرحلة من مراحل عمر الإنسان، فقد يصل إليها، وقد لا يصل إليها. لتستوعب جميع أطوار مراحل العمر التي تكون قبل وبعد الأشد. وبالتالي فإن منكم من يتجاوزه، ومنكم من لا يتجاوزه، فالأمر ليس إليكم، بل هو لله تعالى. فليس لأحد أن يقرر عمره، وزمن حياته أبداً. فهذا الإنسان قاصر عن نفسه، وعن تحقيق مراده من العمر. والله سبحانه وتعالى هو المتحكم فيه. فكيف يعجز من له الحكم كله عن بعث من يموت؟ إنه بيان عظيم، وأسلوب حكيم، وقدرة عظيمة، وسلطان مهيب له عَزَّ وجل، يُثبت به أنه الرب، المالك، المتصرف؛ الذي له الأمر والشأن كله، ولا يعجزه شيء في الدنيا ولا في الاخرة. مما يلزم العبد الانصياع لربه تبارك وتعالى بكمال الطاعة والامتثال. فمن كانت هذه قدرته وقوته وحُكمه وحكمته في أطوار عباده؛ فإن البعث بعد الموت ليس بأمر غريب وصعب. أليس من هذه قدرته بأنه قادر على أن يعيدهم كما خلقهم أول مرة؟ بلى. إنه على كل شيء قدير سبحانه وتعالى.

---

(١) الفيروزي أبادي، القاموس المحيط (٣٠٥/١)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (٢٣٥/٣) ملخص

(٣) السيوطي، تفسير الجلالين (٥٠٤)

ثم يخبر عَزَّ وجل عن أن البعض تستمر به الحياة بقدرة الله تعالى إلى أجل محدد عند الله تبارك وتعالى وهو قوله عَزَّ وجل ﴿ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى ﴾ حيث تنتهي عنده أعمار كل من حان أجله، وسماه سبحانه وتعالى ﴿ أَجَلٗا مُّسَمّٗى ﴾ أجلاً مقدراً عنده، وبما يفيد أنكم لا تعلمونه أنتم حتى عن أنفسكم، ولكن الله تعالى قدره تقديراً، ومعلوماً عنده، ومُسَمًّى هذا الأجل عنده في كتاب. مما يفيد قوة جهل الإنسان بمدة عمره في الدنيا، وعظيم علم الله تعالى به، وأنه عَزَّ وجل هو الذي حدد الآجال لكل مخلوق، ومِن ذلك هذا الإنسان. وهذا من رحمة الله تعالى بهذا المخلوق، ليعيش مطمئناً، وفي أمل من الحياة.

ومن مزيد الفوائد أن جملة ﴿ ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ﴾ فيها الإشارة إلى ما يمر به الإنسان من مراحل وأطوار عمرية حتى بلوغ الأشد، لتنتقلوا شيئاً فشيئاً من مرحلة الرضاع إلى مرحلة الطفولة، ثم إلى بلوغ هذه المرحلة من القوة والجلادة والارتقاء، التي هي أبرز مراحل النمو من حيث بلوغ كمال القوة والنشاط والعزيمة، وكثرة المراد والتحصيل. وهي تفيد كذلك أن من لم يتوفاه الله تعالى في أحد المراحل السابقة للأشد فإنه يحصل ويصل إلى هذه المرحلة التي هي مرحلة الأشد ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ ﴾ ومنكم من يموت قبل ذلك، ومنكم من يموت بعد ذلك، ومنكم من يصل إلى مرحلة أرذل العمر. وقد أفاد التبعيض ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ ﴾ إعطاء معنى: أنه ليس كلكم تنتقلون إلى المرحلة التالية مما أنتم فيه من مراحل أعماركم، فبعضكم يتوفاه الله تعالى.

ثم يلفت سبحانه وتعالى عقول وانتباه العباد إلى التعقل والتفكر في ذلك، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ فلعلكم تفقهون وتتدبرون لأطوار خلقكم وحياتكم، وآجالكم، فتدركون بها عظمة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه واحد أحد، فرد صمد، وأن البعث والحساب والجزاء حق كائن لا محالة. وفي هذا حث من الله تعالى للعباد أن يتعقلوا ما بينه وأوضحه لهم ربهم سبحانه وتعالى ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ فإنه بيان يتحقق لكم به الخير فاعقلوا ما أعلمكم به بالفهم والتأمل والتدبر، وما يلزم وينتج عنه من التطبيق والانقياد والامتثال لربكم سبحانه وتعالى، وأن لا تتهاونوا فيه. فإن المطلوب والمتوقع منكم تجاه هذا البيان العظيم، هو أن تدركوا عظمة ربكم، وعظمة هذ الفضل وهذا البيان. لما فيه من الخير الكثير.

ويفيد قوله تعالى ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ ﴾ التعليل، فهذا الإنعام بالبيان لأطوار خلقكم يعلل لكم وجوب تَعَقُّلَهُ والإفادة منه بتوحيد ربكم وطاعته. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في تربية الإنسان، وتوجيهه بأن حثه

على ما يجب عليه من التأمل في خلقه سبحانه وتعالى لهذا الإنسان الذي يجهل حتى موعد موته، والذي لا يَعْلَمُه إلا الله تعالى فقط. فَوَجَّه تبارك وتعالى الإنسان بأسلوب استثارة عقله ومشاعره نحو الفهم بالتأمل والتدبر، ليصحح فكره حتى يقوم بما يجب عليه من عبادة ربه وتوحيده وإفراده بالعبادة وبالألوهية والربوبية، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان أن الله سبحانه وتعالى غَيَّب ذكر الفاعل في جملة ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ فكلمة ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ لم يتعين في سياقها الفاعل، لتستوعب وتستوفي الآمر بالموت وهو الله تبارك وتعالى، والمباشر لأخذ الروح، وهو الْمَلَك، ونوع سبب الوفاة، وكذلك فيها إبراز وإظهار الوفاة، والتركيز على من يقع عليه الموت، وإشغال ذهن الْمُخَاطَب بها عن الفاعل. مما يبين أن كل لفظة في القرآن الكريم تحقق المقصد الذي أراده الله تبارك وتعالى، وتستوعب الدلالات المرادة بأوفى استيعاب، وهذا من إعجاز القرآن في مراده ودلالاته وبيانه.

وذكر سبحانه وتعالى الدليل المشاهد والمحسوس من ذات الإنسان على عظيم قدرته جَلَّ جلاله، والذي يُثبت ويكشف لكل منكر للبعث أنه عَزَّ وجل على كل شيء قدير، ومنها البعث والنشور بعد الموت والفناء. ففي خلق الإنسان وأطوار نموه، وكذلك في تباين واختلاف موتهم وأعمارهم ما يؤكد عظمة الخالق، وعظمة تقديره وقدرته التي يَثْبُتُ بها البعث والنشور، وينتفي بها عدم التصديق به ونكرانه.

وبعد أن أظهر جَلَّ جلاله أنواعاً من مظاهر قدرته في خلق الإنسان يؤكد تبارك وتعالى شمول قدرته عَزَّ وجل لكل شيء، فقال سبحانه وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فإن من كمال قدرته جَلَّ في علاه أنه هو الذي بإرادته وقدرته يحي ويُوجِد ما يريد من العدم، ويميت ويُفني بعد الإيجاد وحصول الحياة. فهو المتصرف في الحياة والموت وحده لا شريك له. فانتقل السياق الكريم إلى بيان كمال قدرته في الإحياء والإماتة، بنفس أداة الحصر والقصر ﴿ هُوَ ٱلَّذِى ﴾ بأنها له وحده لا شريك له، وليس لغيره الإحياء والإماتة، فهي خاصة به تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فهو الذي أحياكم أول مرة بالإيجاد، وهو الذي يميتكم، وبالتالي كما أحياكم أول مرة، ثم أماتكم، فكذلك يحيكم من قبوركم، ثم إليه تحشرون. فأظهرت وقصرت الآية الكريمة فعل الإحياء والإماتة على الله سبحانه وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ كونها فعل من أفعال الله تعالى. ليكون وقعها في النفس أعمق في هذا البيان. ولتفيد كمال التصرف في الحياة والموت بأنه لله عَزَّ وجل.

وبعد أن أظهر جَلَّ جلاله أنواعاً من مظاهر قدرته يؤكد تبارك وتعالى سهولة تحقق ما يريده عَزَّ وجل لكل شيء، فقال سبحانه وتعالى ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فإنما قضاء ربكم سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فبمجرد قوله للشيء ﴿ كُن ﴾ فإن الاستجابة تحصل مباشرة ﴿ فَيَكُونُ ﴾ كما شاء وأمر وقضى وأراد سبحانه وتعالى. فيأمر بالشيء أمراً واحداً، فلا يحتاج إلى تعديل، ولا إلى تكرار الأمر، بل إنها السرعة في الامتثال بالتكوين كما أراد سبحانه وتعالى من غير زيادة ولا نقص. ليتأكد بذلك سهولة إحياء وبعث جميع من في القبور في لحظة واحدة.

وكلمة ﴿ فَإِنَّمَا ﴾ أفادت الحصر الذي يفيد تعظيم القدرة الخاصة بالله تعالى، وأن هذا لا يكون إلا لله تعالى ومن الله عَزَّ وجل فقط، فلا يشاركه ولا يماثله فيه أحد من خلقه، فقصرت وحصرت تَكَوُّن الشيء وجوداً أو حدثاً أو إزالة على مجرد قوله تعالى ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ كما أفاد القول في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أن الله تعالى لا يحتاج أن يعمل شيئاً حتى يكون الشيء، بل مجرد القول لما يريد بكلمة ﴿ كُن ﴾ ﴿ فَيَكُونُ ﴾ وفق ما قضى به. فما أعظم عظمة الله تعالى، فقد تعالت وسمت. وأفادت الآية الكريمة أنه لا شيء يمتنع عن إرادته عَزَّ وجل. وفي إطلاق كلمة ﴿ شَيۡـًٔا ﴾ أفادت العموم المطلق، لتشمل جميع ما أراده سبحانه وتعالى وما يريده مما هو كائن وما سيكون إذا أراده الله عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان الرباني أنه سَمَّى سبحانه وتعالى ما يقع قبل وقوعه بالأمر ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا ﴾ لأنه بمنزلة ما قد حصل، وفي حكم الموجود. وفي سورة: يس. قال تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فإن قيل: كيف سمى الشيء قبل وجوده شيئاً؟ فالجواب: أن الشيء وقع على العموم عند الله تعال قبل الخلق، لأنه بمنزلة ما قد عُوينَ وشُوهِد[١] وفي هذا قوة بيانية عظيمة، تتوافق مع قوة إرادته جَلَّ جلاله، وعظيم أمره وسلطانه. كما أن هذه الآية الكريمة تُعلم الإنسان عظمة الله تعالى، وعظمة قدرته، وقوة سلطانه، وسرعة تحقق ما يقضي به عَزَّ وجل، وألا يقيس الإنسان قدرة الخالق على المخلوق، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٧/٤)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ثم يشد الله تعالى الانتباه إلى إفك الذين يجادلون في آياته، فكيف ينصرفون ويَعْدِلُون عنها؟ وهي بذلك الجلاء، وذلك الوضوح، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ ألم تتأمل؟ وهو تأمل التعجب والاستنكار يا أيها النبي عليه الصلاة والسلام من حال أولئك الذين يدفعون ويصدون حجج الله تعالى وبراهينه من الآيات والمعجزات التي جاء بها المرسلون، فيدفع هؤلاء الحق بالباطل، ثم يُظهر سبحانه وتعالى حال الإنكار عليهم بالتعجب من سوء فِعَالِهم أمام آيات الله تعالى الباهرة، فيقول تبارك وتعالى ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ كيف ينصرفون عنها مع ظهورها الظهور الذي لا يغفل عنه أحد عاقل. وهو سؤال استنكار ولوم لهم، وتقبيح لعنادهم الحق الظاهر بأدلته وبراهينه وشواهده.

وقد بدأ التوجيه الكريم بلفت الانتباه، من خلال السؤال الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم، ولكل أحد من العباد عن مجادلة هؤلاء الرافضين لآيات الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ وهو سؤال استنكار وتقبيح لهم عن علة بُعد من ابتعد عن طاعة الله تعالى، وتوحيده، وإفراده بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم مع توافر الآيات، وكثرة هذه الحجج والدلائل ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وهو سؤال يشد الذهن والحس والانتباه إلى الذي سيذكره الله سبحانه تعالى. كما هو سؤال استنكار عن ذهول عقولهم عن آياته المبثوثة في السماوات والأرض، وعما جاءهم به من الحجج التي تضمنها القرآن الكريم. وكذلك هو سؤال يقرر لهم أن ما جاءكم من الحق بأدلته وشواهده إلى درجة أنهم عرفوها معرفة لا ينكرونها، بأنها شواهد شاهدة على إفراد الله تعالى في ألوهيته، وربوبيته، وعبوديته، وأنه لا شريك له في ملكه، ولا شريك له في عبوديته وربوبيته عَزَّ وجل. ومع ذلك يصدونها وهم يعرفون أنها حق لا جدال فيه، ليتأكد أن جدالهم بالباطل هو لأمر في نفوسهم بسبب الكبر والحسد.

وهو كذلك استفهام توقف وتدبر لهم عن طريق سؤال غيرهم من العقلاء عنهم ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فأين عقولهم عن هذه الآيات الكونية، والآيات من القرآن الكريم، حتى ﴿ يُجَادِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ في حجج الله تبارك وتعالى. ثم يعقبه ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ فإلى أي شيء ينصرفون؟ وما الذي يصرفهم عن هذه الحجج والبراهين؟ أفرأيت العجب العجاب في انصرافهم عن الإيمان والتصديق. فيخاطب سبحانه وتعالى غيرهم ابتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عن هؤلاء المكذبين، الذين تجاوزوا التكذيب إلى الجدال في حجج الله تعالى وبراهينه المبثوثة في أنفسهم، وفي عموم الكون، وما تضمنه القرآن الكريم من الحجج والأدلة ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ ليفيد ذلك أن ما صرفهم عن الحق الواضح إلا الاستكبار والعناد، وإلا فليس هناك ما يصرفهم عن ظواهر الآيات والحجج من آيات الله تعالى الساطعة بالحق.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى جدالهم بصيغة الاستمرار ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ ﴾ حيث ورد الجدال بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي أفاد استمرارهم في الجدال والعناد للحق بالباطل، بغية نصر الباطل على الحق. فأعطت دلالة ﴿ يُجَـٰدِلُونَ ﴾ تكرار وتجدد ما يعاندون به، بما يفيد قوة العزيمة على مرادهم الباطل، مما يدل على استكبارهم، وأنهم يحملون التجبر في قلوبهم. ليوهموا غيرهم بأسلوب التلبيس أن هذا الهدى ليس بهدى، وأنه باطل. حتى لا يتوجه الناس لاستماع الحق، فيدركونه فيؤمنوا. وقد أفاد كون جدالهم في آيات الله تعالى: أنهم يجادلون من غير حجة، لأن آيات الله تعالى لا تُضادها حجة إطلاقاً، فيكون جدالهم لمجرد العناد والاستكبار، وبالتالي نفى البيان عن جدالهم كل برهان. ليثبت بهذا باطلهم وبطلان ما يجادلون به من كل وجه.

ثم يعمم سبحانه وتعالى هذا المسلك من الجدال والتكذيب لكل من عاند، فيضيفهم إلى هؤلاء المجادلين للرسول صلى الله عليه وسلم، ليكون في ذلك تثبيت وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام، وأنهم مَوعُودُون بالعذاب الشديد العظيم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالذين كذبوا بالقرآن الكريم، وهو المقصود في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ ﴾ ليشمل كل من كذب بالقرآن وصده، سواء في عهده صلى الله عليه وسلم، أو ما بعد ذلك إلى أن تقوم الساعة. ثم أضاف إلى تكذيبهم بالكتاب تكذيب ما جاءت به الرسل من قبل ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ أي: بكل ما أرسلت به الرسل، من الكتب السابقة التي أنزلت على المرسلين من قبل. وكذلك بتكذيبهم لِمَا سبق من الأديان. وكذلك يحمل معنى تكذيبهم بما جاءت به الرسل من البشارة بالرسول محمد

صلى الله عليه وسلم. ويشمل كذلك ما أرسلنا به المرسلين السابقين من تقرير التوحيد والبعث والحساب والجزاء.

وفي تكذيبهم بجميع ما أُرسل به المرسلون يعطي الإفادة بتكذيبهم ما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فما محمد إلا رسول مماثل لمن قبله من المرسلين. والتكذيب بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو تكذيب بما جاءت به الرسل من قبل، لأن الذي جاء به عليه الصلاة والسلام هو متضمن لما جاء به جميع الرسل من قبل، من تقرير توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، والإيمان بالمرسلين، والكتب والملائكة، واليوم الآخر، والبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، لأن أصول دين الله تعالى واحد، وتلك أسسه وقواعده. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وكذبوا أيضاً مع تكذيبهم بكتاب الله تعالى بما أرسلنا به من رسلنا من إخلاص العبادة لله تعالى، والبراءة مما يعبدونه من الآلهة والأنداد، والإقرار بالبعث بعد الممات، للثواب والعقاب[١] فشملت دلالتها جميع ما يتعلق بذلك من غير تعارض ولا تضاد. وهذا من بلاغة البيان في القرآن العظيم، باستيعاب النص الكريم لجميع الأوجه المرادة من غير تكرار لكل مراد على حده، إذ جمعها البيان بنص واحد كريم. وهذا من الإعجاز البلاغي للقرآن العظيم.

ثم يتوعدهم سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوف يعلمون عاقبة كفرهم بما جاءهم من الحق، بما يفيد الوعيد والتهديد لهم إن أصروا واستمروا على كفرهم، وإنكارهم للحق ومحاربته. فسوف يعلمون ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ فسوف يعلم هؤلاء الذين يجادلون ويعاندون ويكابرون على آيات الله تعالى ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ حين تُجعل الأغلال في أعناقهم، وهي الحديد التي تُربط بها أعناقهم ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ وكذلك بالسلاسل يُسحبون، إهانة وإذلالاً لهم على ما كان من تكبرهم على آيات الله تعالى. فهم يسحبون ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: في النار يحرقون، فتتوقد بهم النار، ليصبحوا وقوداً لها. قال مجاهد رحمه الله تعالى: تُوقد بهم النار، فصاروا وقودها[٢] ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ثم في النار يُطرحون فيها، فيكونون الوقود لها. وقد أفادت دلالة ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ أنه قد تناهت شدة حرارة النار، فوصلت لأعلى ما يكون من التوقد. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الحميم: المتناهي في الحر، وقيل الصديد المقلي، ثم في النار يسجرون أي: يطرحون فيها، فيكونون وقوداً

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٦٢/٢٠)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٠/٧)

لها[١] فكان جزاءهم العذاب المهين، الذي يكافئ تكذيبهم وجحودهم لآيات الله تعالى، بل ومجادلتهم لها بالتكذيب والافتراء.

ثم يتوجه لهم السؤال بالتوبيخ عن ما كان منهم من الشرك في الدنيا ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله تعالى؟ أين هم منكم حتى ينقذونكم اليوم من عذاب الله تعالى؟ سؤال توبيخ ولوم وتقريع، وتنديم وتحسير لهم على ما كان منهم في الدنيا. أين ما كنتم تشركون؟ ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أين الذين كنتم تعبدونهم، وتجعلونهم شركاء من دون ربكم سبحانه وتعالى، افتراء من عند أنفسكم؟ ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ قالوا: فقدناهم، وتاهوا وغابوا عنا. ثم أضربوا عن ذلك وانتقلوا إلى الإخبار والاعتراف بحرف الإضراب ﴿ بَل ﴾ الذي أفاد الانتقال من جانب إلى جانب آخر من الكلام، وهو ﴿ لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أي: ما كنا نعبد شيئاً ذا قيمة ونفع، فهو اعتراف، وليس إنكار، لأنه لا وجه للإنكار في ذلك اليوم العظيم. قال القرطبي ومثله الشوكاني رحمهم الله تعالى: وليس هذا إنكار لعبادة الأصنام، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة[٢] ثم يحذر الله تعالى الكافرين بهذا البيان مما هم عليه، فيقول عزَّ وجل ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فكما فعل بهؤلاء من الإضلال فإنه يفعل بكل كافر. بما يفيد التحذير من العناد، والتحذير من الكفر وعاقبته الوخيمة. وهذا من كمال رحمته سبحانه وتعالى بالعباد، إذ يبين ويوضح لهم ما هو كائن من الجزاء قبل حصوله، ليكون إنذاراً لهم، وكل نفس بما كسبت رهينة، من خير أو شر. ونسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة، وأن يجيرنا والمسلمين أجمعين من النار. وأن يرزقنا الجنة بغير حساب ولا عذاب، بفضله وكرمه سبحانه وتعالى.

ثم يعلل سبحانه أسباب هذا الجزاء، فيقول عزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ فذلكم العذاب الذي هو لأهل الكفر ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ بسبب ما كنتم عليه من الفرح بالمعاصي والكفر، فنالكم هذا

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١٧/١٥)

(٢) المرجع السابق (٢١٧/١٥) الشوكاني، فتح القدير (٥٠٢/٤)

العذاب بما كنتم تتباهون به في الدنيا من السرور بالمعصية، وإنكار البعث، ومعادات المرسلين. فأفاد قوله تعالى ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإشارة إلى العذاب الذي ينالهم في الآخرة بسببين: الأول: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو فرحكم وسروركم بالباطل ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ المضاد للحق، فكنتم مسرورون بكفركم ومعاداة المرسلين، وما جاؤوكم به من الحق. والسبب الثاني هو: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ وهو ما ينجم عن الأشر والبطر من الفعال الباطلة، فالمرح مقترن بالفعال الظاهرة، بينما الفرح قد يكون بالقلب، وقد يمتزج بالفعال، وبالتالي تكون دلالة المرح هو تأكيد لِمَا أدى إليه سرورهم القلبي إلى الفعال القبيحة، من التطاول ولتجرؤ على الرسل وعلى ما جاؤوا به من الحق. وهذا من دقائق البيان في تحقيق المقصد بأقصى دقة بيانية.

ثم يؤمرون بدخول جهنم مُرغمين منكسرين مخذولين ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ادخلوا أبواب جهنم، وهي سبعة أبواب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها مكوثاً أبدياً، لا خروج منها أبداً. ثم يُعاتَبُون ويُهانون بالكلام مع ما هم فيه من العذاب الشديد، فتقول لهم خزنة جهنم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فبئس، وهي أشد كلمات الذم ﴿مَثْوَى﴾ محل الإقامة الخالدة الدائمة للمتكبرين ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الخاص بمن كان مستكبراً على الحق الذي جاءهم من ربهم سبحانه وتعالى، فقد جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾

ينتقل البيان الكريم إلى توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم حيال ما يواجه من تكذيب المشركين له، وتصديهم لما جاءهم به من الحق، فيقول تبارك وتعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فيا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿فَاصْبِرْ﴾ تمسك وتحلى بالصبر معهم، وعلى ما توجه من أهل الكفر والعناد ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إن ما وعدك الله تعالى به من الانتقام منهم حق لا ريب فيه، وما يتبع ذلك الانتقام من النصر والتمكين، فسوف يتحقق، ويكون

حقيقة ماثلة، وأما فيما يخص رؤيتك ومعايشتك لما وعدناك به، فهناك أمران: أحدهما هو: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ فإما أن تعاين وتشاهد في الدنيا بعضاً مما نتوعدهم به، من العذاب الدنيوي لهم بالقتل والأسر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أو تحصل لك الوفاة مِنَّا لك قبل أن يصيبهم ما توعدناهم به ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فمرجع الجميع إلينا، بما يفيد فترى عذابنا لهم في الآخرة. ومما يفيد أنهم في قبضتنا سواء كان الأمر في الدنيا أو في الآخرة، فهو متقرر لهم، ولذلك وصف سبحانه وتعالى وعده بالحق ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فهو أمر متحقق الوقوع لا محالة. وفي هذا تحذير لهم من ربهم سبحانه وتعالى لهم، لعلهم ينتهون ويسلمون.

ثم يخبر اللهُ سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يثبته ويسليه عما يواجه، بإخباره بأحوال من سبق من المرسلين، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لقد سبق أنا أرسلنا رسلاً من قبل أن نبعثك نبياً ورسولاً ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ وهذا إخبار مسبوق بلام القسم الذي تصدر مقدمة حرف التحقيق ﴿وَلَقَدْ﴾ لإفادة التأكيد على ما لحقه من بيان كريم. فهؤلاء الرسل من كثرتهم لم يخبرك الله تعالى إلا ببعضهم، ولم يعلمك بغيرهم ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهذا دليل على كثرة المرسلين للناس في أقطار الأرض ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ فمن هؤلاء المرسلين ما قصصناهم عليك، بما تضمنه القرآن الكريم من ذكر اسمائهم وأحوال وتفاصيل بعضهم، كنوح وإبراهيم، وإسماعيل وموسى وعيسى وصالح، ولوط، وداود وسليمان، وأيوب وزكريا عليهم الصلاة والسلام، وغيرهم ممن ورد ذكرهم كتاب الله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ومن أولئك المرسلين الذين أرسلناهم للناس لم نذكرهم لك. فلا علم لك بما كان من قومهم معهم، بما يفيد أن ذكر بعضهم يغني عن ذكر غيرهم. مما يدل على كثرة المرسلين الذين أرسلهم الله تعالى لعباده في الأرض.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، ويخبر جميع الناس بأن الحجج والبراهين اختيار من الله تعالى، وليس بطلب ولا بتحديد من أحد من عباده ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

﴿ٱللَّهِ﴾ فليس من حق أي رسول أن تكون له الاستطاعة بأن يأتي بآية، أي معجزة ولو واحدة ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بما يأذن به الله سبحانه وتعالى. بما يفيد ليس للناس أن يحددوا ويطلبوا من رسولهم معجزة معينة. بل لله تعالى الأمر في اختيار المعجزة المناسبة. وكما أن شأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو شأن من سبقه من الأنبياء في الآيات، فبالتالي لن يكون الاختيار للآيات بما تقترحونه عليه. فشأنه عليه الصلاة والسلام كشأن من سبقه من الأنبياء، إذ لا يأتون بالآيات من عند أنفسهم، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فبدأ النص الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿وَمَا كَانَ﴾ الذي أفاد النفي القطعي، والمبالغة في النفي، فليس حقاً لنبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يأتي بما يُطلب منه من الآيات، أو يختار هو الآيات، أو أقوامهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وحصر سبحانه وتعالى الآيات والإتيان بها له عَزَّ وجل ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي يأذن بحصول الآية وإظهارها كما يريدها ربنا تبارك وتعالى، لا كما يريدها الناس.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن كمال مشيئته وإرادته عَزَّ وجل، فقال تبارك وتعالى ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وهو نكاله المحيط بالمكذبين المنكرين ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ حُكم بالحق والعدل بما يستحقون من النكال والعذاب، الذي يفصل بين المؤمنين والمكذبين. بما يفيد نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، وأن ربكم بصير بكيف يُلحق العذاب بمن يريد من بين غيرهم من المؤمنين. ثم عين ذلك المقصود وأكده سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿هُنَالِكَ﴾أي: ففي ذلك الوقت الذي يحدده الله تعالى يخسر أهل الباطل ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: تتحقق الخسارة في أهل الباطل، الذين واجهوا دين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالباطل، من الردود والجحود والعداء والصدود عن الحق ومحاربته ومجادلته. مما يفيد ليس لأحد أن يحدد على الله تعالى معجزة ولا وقتاً ولا زمناً لأي شيء، فالحكم والاختيار له عَزَّ وجل، وما على الإنسان إلا الطاعة لربه عَزَّ وجل، فهو أعلم وأخبر بهم من أنفسهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن

قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾
فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ
﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ
يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ثم يذكر سبحانه تعالى عظيم امتنانه بما خلق وهيأ لهذا الإنسان من المخلوقات، وسخرها له، فقال تبارك وتعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي خلق الأنعام لكم، أي من أجلكم، تفضلاً وإنعاماً، وتشمل الأنعام الأزواج الثمانية: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، فمن كل صنف ذكر وأنثى. والمعني والمخصوص به فيما يخص الركوب هي الإبل، باعتبار ما أشارت إليه الآية الكريمة من الركوب والحمل. وأما عموم الانتفاع فيشمل جميع الأنعام.

ثم عيَّن سبحانه وتعالى لعباده أوجه الاستفادة منها ﴿لِتَرۡكَبُواْ ﴾ لتستخدموها في الركوب، فتحملكم، وتحمل أمتعتكم، وتنتقلون بها من مكان إلى مكان ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ ومن لحومها تأكلون، وتتغذون وتتنعمون. بما يفيد أن من واجبكم أن تتأملوا في هذا الإيجاد والخلق والتسخير الذي يلائم بين حاجتكم، وبين ما يحققها ويشبعها بأحسن وأكمل ما يكون. فإن من تأمل ذلك أدرك عظمة المدبر والخالق سبحانه وتعالى. أفلا يدل هذا على كريم عطاء ربكم لكم، فكيف لا توحدونه وتعبدونه، وتطيعون رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد أراد بكم الخير فيما خلق وسخر، وفيما أرسل لكم به الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم، وأنزل الكتاب عليه لكم، وشريعته الغراء.

ثم يعدد تبارك وتعالى مجملاً من منافع الأنعام ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴾ فإن لكم فيها منافع. وقد وردت المنافع عامة ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ لتشمل كل ما ينتفع به الإنسان من الأنعام، كأوبارها وأشعارها، وما ينسجه منها من الملابس، والمفارش والفرش، وما يتخذه من جلودها كالقرب لتخزين الماء، وتبريده، وحمله، وصناعة الأحذية، وغيرها، وكذلك شُرب ألبانها، وما ينتج عنه من السمن والجبن والقشطة وغيرها من موارد الغذاء. وكذلك من جليل إنعام ربكم عليكم أنكم تبلغون بها حاجاتكم البعيدة بالتنقل بها، فقال تبارك وتعالى ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ

فِي صُدُورِكُمْ ﴾ وتتوصلون بها إلى حاجاتكم التي تلبي مطالبكم المكنونة في صدوركم، كالسفر إلى مقاصدكم، وحصول السرور بذلك البلوغ.

ومن دقائق البيان تسمية المراد تحصيله بكلمة البلوغ ﴿ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ لإفادة تحصيل المراد الشاق على نفوسكم بما أنعم به عليكم من الأنعام، فتبلغونه بفضل ربكم عليكم. وبما يعني أنها غاية في نفوسكم مع المشقة لو لم يسخر لكم ربكم هذه المراكب من الأنعام. كما جعل الحاجة في الصدور ﴿ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ بما يفيد قوة الهم وصعوبة المشقة التي لامست صدوركم لولا هذا التسخير لكم بما أنعم عليكم ربكم من الأنعام. فتحملون عليها أمتعتكم وتجارتكم ولوازمكم الثقيلة، التي تعجزون عن حملها على أكتافكم إلى مسافات بعيدة، لتبلغوا بها مرادكم، وفي هذا لفت الانتباه إلى حجم وثقل ما تحمله تلك الأنعام، فتنفس عن قلوبكم بما تحملونه من هم، وبما يفيد العجز البشري من أن يتحمل حَمْلَهَا الإنسان حتى يبلغ بها مقاصده من الأماكن والبلدان لولا أن تفضل الله تعالى على عباده بهذه الأنعام وسخرها لهم.

ثم ينوه سبحانه وتعالى إلى وسيلة أخرى سخرها للعباد وهي السفن والمراكب البحرية، فقال تعالى ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وعلى هذه الأنعام وعلى البواخر والسفن ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ فعلى تلك الرواحل من الأنعام تحملكم وتحمل أثقالكم براً، وسخر لكم البواخر والمراكب والسفن بحراً، فتحملكم أنتم، وتحمل معكم أمتعتكم وأثقالكم، من التجارة وعموم ما تريدون حمله، مما لا تستطيعون لولا فضل الله تعالى عليكم بهذا التسخير.

وفي لفت النظر لآية تسخير تلك المراكب من الأنعام والفلك، وكذلك تسخير البحر لتلك الفلك التي تجري فيه بأمر ربها وإنعامه وتدبيره سبحانه وتعالى فإنها مثار للبصر والبصيرة بالتفكر والتأمل، لِمَا ينتج عن ذلك من إدراك دواعي خلق الحواس والعقل في تحصيل الاستدلال للإنسان على الخالق العظيم بما خلق ودبر، فيحصل بذلك الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى، وطاعته، والاستجابة للمرسلين، وما جاؤوا به من التنزيل والحجج والبراهين، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن من لم يستخدم عقله وحواسه فيما خُلقت له فقد حاد بحواسه عن الحق، وسلك بها مسلك الجهل والباطل.

ثم ينتقل الخطاب البياني في تدرج إلى كريم إنعامه عليكم بالتمكين من القدرة على التدبر والتفكر ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ فربكم يريكم ويلفت انتباهكم لآياته الكونية المليئة بالحجج والبراهين. فأي شيء يمكنكم أن تنكرونه وتردونه منها؟ بما يفيد ليس هناك ما يمكنكم رده منها، بما يلزم

أن تلك الدلائل والحجج كافية في توحيده وعبادته وحده لا شريك له، وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم، الذي جاءكم بالحق والحجج والبراهين من المعجزات.

وقد ورد السياق الكريم بنفائس من البيان العظيم، فقد نسب إحداث الرؤية له سبحانه وتعالى ﴿ وَيُرِيكُمْ ﴾ فهو الذي يريكم، لتشمل ما زودكم به من الأبصار، والبصائر، وتشمل أنه هو الذي يستثير رؤيتكم ويحثكم على الرؤية والتأمل، وأنه هو المنعم عليكم بما ترون من الإنعام. كما أنها وردت بصيغة الفعل المضارع ﴿ وَيُرِيكُمْ ﴾ ليفيد استمرار رؤيتكم لها، ورؤية من يأتي بعدكم من الأجيال. ونسب الآيات له عَزَّ وجل ﴿ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ فالآيات كلها له سبحانه وتعالى، فهو الذي خلقها وأوجدها سبحانه وتعالى. كما ورد التنويه بالسؤال الاستنكاري لهم ﴿ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ فأي شيء تختارونه من تلك الآيات لتنكرونها؟ فهل تستطيعون ذلك؟ بما يفيد التبكيت والإحراج لهم، من أن جميع الآيات ليس فيها ما يمكنكم رده والطعن فيه، فليس فيها مجالاً للاستنكار والرد. فهو سؤال استنكار يفيد الإثبات، إثبات معجزات الآيات جميعها من غير استثناء.

ثم يثبت الله تعالى على المنكرين أنهم لم يتعظوا بغيرهم من خلال هذا السؤال الاستنكاري ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ ألم يتأملوا في حال من سبقهم من الأمم؟ أفلم يحصل من هؤلاء المنكرين المشركين أن ساروا في الأرض، فمروا بديار أقوام قد نالهم العذاب لكفرهم، وعدم استجابتهم وطاعتهم لرسلهم، فيحصل لهم الاعتبار بذلك، فينتهوا عَمَّا هم فيه من التكذيب والتطاول على الحق، فإن أهل مكة كانوا أهل تجارة إلى اليمن والشام وغيرها، فيمرون على ديار عاد وثمود. وهذه من الحجج القائمة عليهم، التي ينتفي بها العذر مما شاهدوه وعاينوه بأبصارهم، ومن التأمل والنظر بحواسهم وعقولهم إلى آثار أولئك الأقوام المكذبة بالرسل، وبالتالي يحصل التناقل من الناظرين المارين بها إلى غيرهم. فتكون مثار حديث بينهم، وما يجب عليهم من الاتعاظ بها.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ألم يحصل لهؤلاء المشركين أن ساروا في الأرض عند أسفارهم، فمروا وأتوا على ديار المكذبين الذين أهلكناهم بعذابنا، فيعتبروا بما فيها من آيات العذاب التي نزلت بغيرهم. وهو سؤال يقرر لهم به أنهم قد سافروا من خلال رحلتهم التي أثبتها الله تعالى في سورة قريش، من رحلة الشتاء والصيف. فَيُورِدُ الله تبارك وتعالى سؤالاً تقريرياً بما حصل لهم من النظر والمرور بديار أهل العذاب، وكذلك

هو استنكار ولوم وتوبيخ، يستنكر به على المشركين والصادين والمنكرين والكافرين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يتعظوا بما رأوا.

في هذه الآية الكريمة يُعَاتِبُ اللهُ تبارك وتعالى المكذبين، ويوبخهم على عدم اتعاظهم بمن قبلهم، وذلك بالسؤال الاستفهامي، المتضمن للاستنكار والتقريع والتوبيخ، والتعجب من عدم إفادتهم مما يمرون عليه ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أفلم يحصل لهم السير في الأرض فيتأملوا في مصارع المكذبين من الأمم الخالية. فقد أنزلوا عقولهم وأبصارهم وبصائرهم منزلة المعدوم، إذ لم يتعظوا مما رأوا من حال الأمم. فلم يستفيدوا أي فائدة ترشدهم للزوم الحق واتباعه. وبالتالي أنزلوا سيرهم ومسيرهم في الأرض منزلة المعدوم من الفوائد، وكأنهم لم يروا مصارع من جحدوا وكفروا. مما يفيد أن من لم يستفد مما يرى ويسمع، ويشاهد فإنه قد عَطَّل حواسه التي كان المفروض أن يستثمرها فيما ينفعه من الخير، وأولها وأهمها منافع الآخرة التي هي دار القرار.

وهو كذلك بلاغ وإرشاد للصادين عن الإسلام إلى السير في الأرض، ثم ينظروا فيما حل من العذاب بالكفرة من الأمم التي قبلهم، فيكون سيرهم لرؤية الدليل وما يتعظوا به من الآيات ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ألم يحصل منهم السير في الأرض، وهو سؤال تقريع وتوبيخ وتقرير في نفس الوقت لعدم استفادتهم مما رأوا من أثار الهالكين بالعذاب.

ألم يحصل منهم السير في الأرض ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وفي هذا التوجيه الرباني ما يفيد: الإرشاد إلى السير نحو معالم الحق، والتفتيش والاستعلام عن الحوادث التي تؤكد الحق وبيانه، وأخذ العبرة، والاسترشاد منها للخير والحق، كما يفيد لزوم السفر في طلب الحق واستعلامه، والاتعاظ بالغير. فيتأملوا ويتفكروا فيما حصل من عذاب ودمار الأمم التي قبلهم، ممن كذبوا بِرُسُلهم، فحاق بهم العذاب.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن شدة وقوة من كان قبلهم، مقارنة بقوة الْمُخَاطَبين من أهل مكة من المشركين آنذاك ﴿ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ لقد كان الذين من قبلكم أكثر عدداً، وأقوى منكم في القدرات والإمكانات حتى أنهم ﴿ وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بالبناء والتشييد من القصور والأبنية، وكذلك ما كان منهم من إعمار الأرض بالزراعة، فحرثوها بتقليبها، وزراعتها بعد أن هيأوها بالحرث وجداول السقاء بالماء، وشيدوها بالقصور والمصانع، والزوع، ومجاري المياه، ونحت الجبال، وإنشاء النوادي لمجالسهم، ومع ذلك لم تغنهم قوتهم وحرثهم وتشييدهم، وسكناها والتمتع بها من عذاب ربهم عَزَّ وجل.

فإن قلوب هؤلاء لم تستفد مما أبصرته عيونهم، لأن تَبَصُّر القلب يأتي مما تُبصره العين وتسمعه الأذن، وخص النظر بالذكر لأنه وسيلة المشاهدة والمعاينة ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وبالتالي أفلم يحصل من هؤلاء المنكرين المشركين أن ساروا في الأرض، فمروا بالديار التي نال أقوامها العذاب لكفرهم، وعدم استجابتهم وطاعتهم لرسلهم، فيحصل لهم الاعتبار بذلك، فينتهوا عَمَّا هم فيه من التكذيب والتطاول على الحق، فإن هذه من الحجج القائمة عليهم، التي ينتفي بها العذر من التأمل والنظر بحواسهم وعقولهم إلى آثار تلك الأقوام المكذبة بالرسل، وأما من لم يسر في الأرض منهم فإن الناظرون والمارون منهم بها ينقلون لهم مشاهداتهم عن ذلك، فيتناقلون ذلك بين بعضهم البعض. فالمعرفة بالأقوام الهالكة متحصلة عندهم جميعاً، بما رأوا أو سمعوا وأُخْبِرُوا به. وبالتالي فالحجة قائمة عليهم. مما يفيد أهمية إعمال القلب والسمع والبصر فيما خُلقت له على الأصل، وهو عبادة الله تبارك وتعالى.

ولكن كانت النتيجة على تلك الأمم الغابرة أنه لم يتحقق لهم إلا العذاب المهين، ولم تدفع عنهم مكاسبهم شيئاً من عذاب الله تعالى ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فما أغناهم ما كانوا يكسبون من الأموال والأولاد والجاه والمكانة ما يدفع عنهم العذاب. فما دفع عنهم ما استغنوا به شيئاً من عذاب الله تعالى، ومحاسبته لهم. وبالتالي ما صح قولهم الذي قالوا. مما يفيد أنه مهما بلغ الإنسان من الجمع والتكاثر فإنه لا يغنيه عن الله تعالى، ولا يدفع عنه الشر، ولا الحساب، ولا يدفع عنه عذاب الله تعالى وسخطه، ولا أن يمنع عنه أن يحل به السقم بعد الصحة، والفقر بعد الغنى، والهلاك بعد العافية، والقلة بعد الكثرة، فعلى المرء أن يدرك أن مكاسبه التي يتظاهر ويتبختر بها لا تدفع عنه شيئاً من سخط الله تعالى وعقابه.

ثم يكمل سبحانه وتعالى بالإخبار والإيضاح وقوة البيان حال أولئك من أهل الأمم السابقة التي أنعم الله تعالى عليها حتى شيدوا الأرض، وعمروها وزرعوها، بما أفاضه الله تعالى عليهم من العلم والمعرفة في الإفادة من الأرض، ولكن عندما جاءتهم رسلهم بالحق كانوا على خلاف ما يجب عليهم من الإيمان والتصديق، فقال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فلما جاءتهم رسلهم من الله عَزَّ وجل بالحجج والبراهين والمعجزات التي أبانت لهم صدق المرسلين، وصحة وسلامة ما جاؤوا به من ربهم تبارك وتعالى، كفروا بها وأنكروها وجحدوها، فقد غَرَّهُم ما كان عندهم من العلم بالدنيا التي فتح الله تعالى به عليهم ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ فقادهم هذا الفرح إلى تكذيب المرسلين، والتطاول عليهم، وجحود ما معهم من الحق، نتيجة فرحهم بما أكرمهم الله تعالى به من العلم والقدرة على الحرث والبناء، فاغتروا بحالهم ولم يشكروا ربهم بالطاعة والامتثال للمرسلين، وذلك بسبب ظنهم أن ذلك من قوتهم، وقدرتهم، ومن كسبهم وخبرتهم وليس فيضاً وإنعاماً من ربهم عليهم تبارك وتعالى. مما يفيد خطورة التباهي والزهو بالعلم في رد الحق من الغير، وذلك بالاستعلاء والأنفة والكبرياء. ولم يقابلوها بما يجب

من التواضع، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهب العلم والقدرة والمعرفة للإنسان، بتسهيل مصادره، وقبول عقله للعلم والمعرفة، ثم الانتفاع بما عَلَّمه الله سبحانه وتعالى.

وهنا جاءت العقوبة من الله تعالى بهم مباشرة ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: فأحاط بهم عذاب ما كانوا يستهزؤون به من الحق الذي جاء به المرسلون من ربهم عليهم الصلاة والسلام. وقد وصف الله تعالى ما وقع بهم من العذاب بدلالة ﴿وَحَاقَ﴾ التي تستوفي الإحاطة بهم من كل جانب، فليس لهم أي سبيل للمفر، أو الوقاية بأي شيء مما أصابهم، مما يفيد حصول العذاب الجسدي مع العذاب النفسي الذي يمثله ما أصابهم من القهر بما أحاطهم. وورد بيان العذاب الذي أصابهم بعلة وسبب ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فهو مقابل ما كانوا يستهزؤون، فإن الذي كانوا يستهزؤون به من حجج الله تعالى وبراهينه، وتوحيده ودينه عَزَّ وجل هو السبب في إحاطة العذاب بهم. ليفيد التحذير من البغي والبطر، ومقابلة الحق بالباطل. ليكون ذلك موعظة لكل أحد من الناس.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنهم عند معاينتهم للعذاب تغير حالهم في الوقت والساعة التي لا ينتفع منها الإنسان، وهي ساعة معاينة العذاب، وملامسته للمعذبين. فقال تعالى عنهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ فلما شاهدوا البأس من العذاب، وعاينوه أنه واقع بهم لا محالة ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ وعاينوه حقيقة، وأنه واقع بهم لا مفر ولا وقاية منه ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ اعترفوا بالحق، وكفروا بما كانوا عليه من الشرك، فقرروا إيمانهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ قرروا وأقروا بتوحيد الله تعالى، وآمنوا بأن الله تعالى ربهم، ولا شريك له في ملكه وعبادته وألوهيته، وأعلنوا كفرهم بما كانوا عليه من الشرك ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ وأنكرنا وكذبنا واعترفنا بأن ما كنا عليه من عبادة الأصنام أنه أمر باطل. ولكن كان هذا الاعتراف في غير وقته، فهو مماثل لاعتراف فرعون عندما شاهد نفسه في الغرق الذي لا خروج له منه. وهي الساعة التي لا ينفع فيها الاعتراف، لأنه قد وقعت العقوبة. مما يفيد أن على الإنسان أن يسارع إلى التوبة ولا يترك حتى تبلغ النفس الحلقوم، وتحضر وفاته، ويعاين ملائكة الموت. اللهم أحسن خاتمتنا برحمتك وفضلك يا رب العلمين والمسلمين أجمعين.

فيقرر الله تبارك وتعالى أن تلك الساعة التي ورد فيها الاعتراف لا فائدة ولا جدوى منها، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فلم يكن ذلك الوقت وذلك الاعتراف بالإيمان حين رؤيتهم لعذاب الله تعالى يحقق لهم النفع الذي يرفع عنهم العذاب ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ وفي هذا إنذار لغيرهم بأن ساعة وقوع العذاب لا ينتفع الإنسان باعترافه وإيمانه، لأنها ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ﴾ فهذا حكم الله سبحانه وتعالى في جميع من أحدث وأخر التوبة إلى حين معاينته العذاب، أو حضور ملائكة الموت. وقد قال صلى الله عليه وسلم (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١] ففي تلك الحظة تتحقق خسارة الكفر ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ بما يفيد قد تحققت في تلك اللحظة الخسارة لكل كافر لم يتب ويقلع عن كفره، ويستجيب لربه سبحانه وتعالى، أما قبلها فهو خاسر أيضاً ولكن كان بإمكانه التوبة والدخول في دين الله تعالى. وأما عند حلول العذاب، وعند غرغرة الموت فقد تحققت الخسارة بلا ريب ولا شك، ولا مجال للتوبة والرجوع عن الكفر للحق والطاعة والامتثال. فتكون خاتمته إلى النار وبئس المصير. فنسأل الله تبارك وتعالى حُسن الخاتمة برحمته وفضله لنا ولجميع المسلمين يا رب العلمين. وبهذه الآية الكريمة خُتِمَت سورة غافر. اللهم اغفر لنا وللمسلمين أجمعين يا رب العالمين.

تم بحمد الله وفضله إتمام سورة غافر، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

(١) الترمذي، الجامع الصحيح برقم (٣٥٣٧) وأحمد، المسند، برقم (٦١٦٠)